
كتب ثقافية
فوق الرمال العربية
بقلم
ولفريد تسيجر



ولفريد ثسيجر

فوق الرمال العربية

عربه بتصرف
محمد محمد عبد القادر

حـــــــول

مقـدمة المؤلـف

يقول المؤلف « ولفريد تيسيجر » فى مقدمته للكتاب إنه لم يفكر ابدا فى أن يكتب عن رحلاته فى شبه جزيرة العرب ، لولا أن ألح عليه صديقه « جراهام واطسون » الذى أشرك معه الناشر المعروف « مارك لونجمان » حتى أقنعاه بوضع كتابه هذا عن الصحراء العربية « والبلاد الشاسعة الخالية التى قطعت فيها قرابة العشرة آلاف من الأميال على ظهور الأبل »

ويعقد المؤلف مقارنة بين الظروف التى جال فيها فى شبه الجزيرة العربية وتلك التى سيذهب فيها غيره اليها . . . فالجمل وسيلته الوحيدة للتنقل بين ارجاء شبه الجزيرة . . . ولم تكن ثمة وسيلة للاتصال بالعالم الخارجى . . أما من سيأتى من بعده ، فأمامه سبل السفر الأكثر يسرا وهى السيارات ، وعنده الهاتف واللاسلكى ان شاء الاتصال بالخارج .

ثم يتبسط المؤلف فى المقارنة فيخرج بها من الظروف الى النتائج التى سيحصل عليها خلفه من العلماء والباحثين والمستكشفين ، إنهم قد يأتون بنتائج أكثر أهمية من تلك التى جئت بها ، ولكنهم لم يعرفوا روح البلاد وعظمة العرب . ولو ذهب أحدهم الآن الى هناك ، منقبا عن حياة كالتى عشتها فإنه لن يعثر عليها .

لقد عبثت يد الحضارة المادية ، وروح الاستعمار الاقتصادى ، بصفاء

الصحراء وطهارتها . فدنست مقدساتها ، وتركت آثارها البغيضة فى نفوس سكانها . حتى رمال هذه الصحراء لم تسلم من دنس (بقايا البضائع المستوردة من أوربا وأمريكا . ولكن هذه الأقذار المادية ، لا تقاس فى دنسها ، بالانحطاط الروحى والخلقى الذى وصل اليه ساكن الصحراء) نتيجة للظروف الجديدة الدخيلة على حياته .

فبدو الصحراء كانوا يعيشون عالمهم الخاص ، الذى توارثوه عن الآباء والأجداد حقباً طويلة من الزمن تمتد الى مبدأ قيام الحياة فى الصحراء . . عالم كله انطلاق وحرية ، وعزة وكرامة ، وخشونة وقناعة . قد يكون هذا العالم متخلفاً فى كثير من نواحيه ، عن ركب المدنية الحاضر ، ولكن هذا التخلف لا يعيبه ، فهو قائم على أسس خلقية ، ومثل روحية لها قداستها فى الصحراء ، حيث نشأت هذه الأسس والمثل وترعرعت بعيدة عن مظاهر حضارة خداعه التى تخفى وراءها شرورا وآثاماً ، لا تتقبلها روح البدوى وطبيعته التى فطر عليها. فان كان فى هذه الحضارة نفع فان اثمها ، فى نظره ، أكبر من نفعها .

(وليس معنى هذا أن أهل الصحراء كانوا متوحشين أوجهلاء على العكس كانوا ورثة ، شديدى التعصب ، لحضارة موغلة فى القدم وجدوا داخل إطار مجتمعهم الحرية الشخصية والتهذيب النفسى الذى يريدون .)

وينصف المؤلف صحراء العرب وسكانها ، ويشيد بروعة طبيعتها ، واصالة الشعب فيها ، فلا يجد مجالا للمقارنة بينها وبين غيرها من البلاد التى أمها وسافر عبر شعابها ووديانها .

(سافرت عبر شعاب كراكورام وهندوكوش فى جبال كردستان ومستنقعات العراق ، مدفوعا دائما الى الأمكنة البعيدة ، حيث لاتستطيع

السيارات الوصول ، وحيث تمارس العادات والطقوس القديمة . ورأيت مناظر بالغة فى الروعة ، وعشت بين قبائل مجهولة عجيبة ، ولكن ماهزنى مكان من هذه الأمكنة ولا راعنى منظر من هذه المناظر أو اثر فى شعب بقعة من البقاع التى زرتها ، كما فعلت صحراء شبه الجزيرة العربية) .

وينبه المؤلف فى مقدمة كتابه الى خطأ كان شائعاً حول كلمة « عربى » فيقول (منذ خمسين سنة لم تكن كلمة « عربى » تنطبق الا على ساكن شبه الجزيرة العربيـة حتى أضحت مرادفة لكلمة بدوى . أما اليوم ، ومع نمو القومية العربية ، فقد أصبحت تطلق على كل مواطن فى أى قطر عربى)

وفى ختام المقدمة ، يشكر المؤلف من عاونه ، قولا ، أو عملا ، فى سبيل انجاز كتابه هذا ، ثم نراه يختتم هذا الشكر ، بكلمات تعبر عن العرفان بالجميل والوفاء لبدو صحراء شبه الجزيرة العربية (الذين لن يقرأوا أبدا هذا الكتاب ، ولكننى ، فى الحقيقة مدين لهم أولا وقبل كل شىء . فلولا مساعدتهم لى ما كنت مستطيعا القيام برحلتى فى منطقة الربع الخالى ولقد منحتنى زمالتهم أسعد سنوات فى حياتى) .

يقول المؤلف فى الأصل : أصبح كل من يتكلم اللغة العربية يدعى عربيا دون اهتمام بأصله . والخطأ واضح فى هذا التعبير .

الباب الأول

طفولة وشباب

بين الحبشة والسودان

لست أدرى ما الذى يدفعنى دفعاً إلى مغادرة بلادى إلى أرض الشرق ، أبحث فى رمالها عن المجهول ، وأعيش فيها على الجوع والخوف ، لعله سحر الصحراء قد استهوانى بعد أن عشت فيه زمناً خلال رحلتى فى جبال الحجاز فى صيف ١٩٤٦ ، لقد كنت يومذاك على مقربة من حدود المنطقة التى يطلق عليها اسم «الربع الخالى» وهناك عشت مع سكانها من البدو حياة كلها قسوة وكلها خشونة . وإذا كان رفاقى قد ألفوا هذه الحياة لأنهم شبوا فى معتركها ، فلم يشعروا بقسوتها ولم توهن عزائمهم خشونتها ، إلا أننى لم ألبث أن بلغ منى التعب مبلغه بعد المسيرة الطويلة عبر التلال الرملية ، أو بين السهول ، حيث يتألق السراب على مبعدة منا فنحسبه ماء .

واقترنت قسوة الحياة وخشونة العيش فى هذه المنطقة ، بعوامل الفزع والخوف ، فلم تفارق بنادقنا أيدينا أبدا ، بل كنا فى رعب دائم من عدو مفاجىء ، تدور أعيننا فى الأفق بحثاً عنه ، وتظل أجفاننا مسهدة خوفاً منه .

مالى إذن أحن إلى العودة إلى هذه الحياة القلقة القاسية؟ إننى لأعجب لهذا الدافع الغريب الذى يشدنى إلى حياة لا أطيق حملها ، ولم أتأقلم بها.

لقد كانت عودتى إلى الربع الخالى ، إذن ، إستجابة لنزعة الطموح ، وتلبية لغريزة حب الاستطلاع ، علاوة على ما فى الصبر على الحياة هناك ،

من اختبار لقوة الإرادة فى نفسى. إن معظم أجزاء « الربع الخالى » لم يكن قد كشف عنه بعد ، وهو أحد البقاع القلائل التى لم تطأها قدم إنسان من قبل. ومن هنا كان الأمل فى إشباع رغبتى فى الكشف عن المجهـــول.

وعدت إلى طفولتى ، أستلهمها دليلا لهذه الضرورة الملحة التى تشدنى من بلادى إلى صحارى الشرق. قد يكون هذا الدليل قابعاً فى خبايا اللاشعور منذ أن كنت طفلا فى الثالثة من عمرى فى رحــــلاتى عبر الصحراء والحبشة ، .. فى فرحتى الغامرة عندما كنت أرى أبى ، وهو يصيد الوحوش الكاسرة ، .. فى تصورى الغامض لمنظر قطعان الأبل ، غوثى عند آبار المياه ، .. فى رائحة الأديم والرمال وهى تكتوى بنار الشمس المحرقة ، .. وفى أصوات الضباع وصرخات ابن آوى ، حول نيران المخيم فى ظلمة الليل. لقد تلاشت ، كل هذه الذكريات القديمة ، دون شك ، فى غمرة ذكريات حديثة عن وهاد الحبشة ونجودها جديرة بأن تروى.

ولدت بالحبشة عام ١٩١٠ ، فقد كان والدى سفيراً لبريطانيا فى أديس أبابا. وكان مولدى فى أحد الأكواخ المصنوعة من الطين ، التى كانت ، فى تلك الأيام ، مقراً لسفارتنا ... ما أعجب المناظر والأحداث التى مرت بها طفولتى فى هذه البلاد !! لقد أتيحت لى مشاهدة ما لم يره ، سواى ، إلا القليلون ... رأيت الكهنة الأحباش ، وهم يرقصون أمام « قوس الميثاق » على دقات طبولهم الفضية ذات الصوت الحبيس ... رأيت أعضاء الكنيسة الحبشية ، فى حللهم المزركشة يباركون المياه ... رأيت الجيوش تذهب للقتال ، إبان الفتنة الكبرى عام ١٩١٦ ، سمعت البكاء والعويل عندما دمر جيش «رأس السجد» لما أن حاول وقف زحف جيش

النجاشي ميخائيل . . وشهدت الفرح الغامر الذى رافق إعلان النصر الأخير كما رأيت موكب النصر ، يعرد بعد معركة « ساجال » الحاسمة التى التحمت فيها قوات الشمال مع قوات الجنوب فى معركة يائسة بالأيدى ، طيلة يوم كامل.

كان كل أقطاعي من حكام المقاطعات ، يقف وسط جنود مقاطعته ، يلبس البسطاء منهم الملابس البيضاء بينما يرتدى رؤساؤهم عدة الحرب كاملة . خوذات « رأس الأسد » عباءات مخملية ، براقة ، موشاة بالذهب والفضة ، . سيوف مشرعة ، وقد حمل الجميع دروعا ، ذات نقوش ، ووشى بالذهب أو بالفضة . . .

لقد عاد هؤلاء القوم من معركة ضاربة عاتية خاضوها ، فى سبيل الحفاظ على حياتهم والدفاع عن كيانهم . . . وكان الحماس لايزال مشبوباً فى نفوسهم ، فى تلك الساعات المحمومة وإذ لم تكن الدماء التى لوثت ثياب قتلاهم قد جفت بعد ، لقد نزعوا هذه الثيـاب عن أجساد أصحابها وربطوها حول خصورهم ازدهاء بقوتهم، ومباهاة بشجاعتهم وكانوا يسيرون فى صفوف، صارخين هاتفين ملوحين بأسلحتهم . وقد أخذوا يتزاحمون على سلم العرش ، فيردهم حجاب الملك بعصيهم الطويلة ، وإنه ليحضرنى الآن منظر فتى صغير ، كان يكبرنى بقليل وقد حمل على أكتاف الرجال ، تمجيداً له لقتله رجلين . . . ولا زلت أتخيل ملك الشمال ذليلا ، مقيداً بالسلاسل ، وقد حمل على كتفيه الحجارة إمعاناً فى الإذلال ودلالة على الخضوع . . . لن أنسى ما حييت ، تلك اللحظة التى أثرت على كيانى فهدته هدا ، فى ذلك اليوم الحافل بكل ما هو مثير ، لقد سكت قصف الطبول فجأة ، وفى هدوء شامل ، سار بعض مئات من الرجال فى تؤدة وبطء، يرتدون ثياباً رثة مهلهلة، أمام صفوف طويلة، من جنود الجيش المنتصر. وكان على رأس هؤلاء الرجال صبى ، إنه إبن (رأس السجد) .. لقد

أمروه بقيادة الفلول المهزومة البائية من جيش أبيه ، بعد أن فقد ، فى المعركة ما يقرب من خمسة آلاف مقاتل من الأشداء . .

طافت كل هـذه الذكريات برأسى ، وداعبت خيـالى أحلام الرحلات والمغامرات فى أفريقية ، وأغرتنى كتابات «جوردن كـنج» و «بلدوين» عن الحياة فى مجاهل افريقية ، وكان رفاقى فى المدرسة ، يرموننى بالكذب والمغالات اذا ما ذكرت أمامهم بعض ماشاهدته أثناء طفولتى ، فى الحبشة . . .

وبلغت العشرين من عمرى . وعـدت الى الحبشة مرة ثانية . ولم يـكن « هيلاسلاسى » قد نسى فضل والدى عليه أثناء الثورة الكبرى ، عندما أنقذ أبنه الصغير « ولى العهـد » بإيوائه فى السفارة البريطانية ، ولذا فقد بعث الى بدعوة شخصية لحضور حفـلة تتويجه ، فذهبت الى الحبشة ملحقا ببعثة دوق جلوستر ، وركبنا القطار من جيبوتى الى أديس أبابا

وأقيمت حفلات التتويج ، وسارت مواكـبه ، وأعدت مآدبه الرسمية المدعوين . ورأيت البطريرك وهو يتوج « هيلاسلاسى » ملكا لملوك الحبشة بعد دهنه بالزيت . ظهر هيلاسلاسى لشعبه جالسا على عرش بلقيس ملكة « سبـأ » و سليمان الحكيم ، كما يدعون وازدحمت شوارع أديس أبابا برجال القبائل من كل المقاطعات . ورجعت بذاكرتى الى مظاهر « يوم النصر » التى شاهدتها ، عندما كـنت طفلا . ولـكن روحا جديدة كانت تطل من وراء هذه المظاهر القديمة . روح ثقافة جديدة ، ومدنية حديثة واستمر بنا هذا الحال عشرة أيام حافلة .

كـنت قد كبرت ، وكبرت معى احلام المغامرات والصيد والاستكشاف . وهاأنذا أعود الى أفريقية ، مسرح الصيد والمغامرات والاستكشاف لقد أحضرت بندقية معى .

وخطر لى ، يوما ، أن أسأل العقيد « شيزمان » المستكشف المعروف ، بعد أن انتهت حفلات التتويج ، ما إذا كانت هناك بقاع فى الحبشة لم تستكشف بعد . وعلمت منه أن مصب نهر « العواش » لم يعرف بعد ، ونهر « العواش » نهير ينبع من جبال غربى أديس أبابا ، ويسير فى صحراء « الدناقل » الواقعة فى شرق الحبشة . وقفزت الى تفكيرى مغامرة فى بلاد « الدناقل » التى يصيد أهلها البشر . . .

ورغم اضطرارى للسفر الى أكسفورد بعد أسابيع ستة ، الا إننى صممت على ارتياد هذه البلاد . وسهل على القيام بهذه المخاطرة وجود العقيد «ساندفورد» صديق الأسرة من قديم ، الذى ساهم فى اعداد القافلة . وأطلعت الوزير البريطانى المفوض « سيرسدنى بارتون » على ما انتويته من مخاطرة ، فانزعج خوفا على ، واقترح أن انضم الى رحلة للصيد يقوم هو بإعدادها ، فرفضت شاكرا . ان أتخلى عن أحلام طفولتى . . بل سأعمل على تحقيقها . وشرحت للوزير المفوض حاجتى الى الخبرة ، ورغبتى فى القيام وحدى بالمغامرة ، كى أستكمل خبرتى . واقتنع الوزير المفوض بوجهة نظرى ، فتمنى لى التوفيق ، وزودنى بنصائحه التى اختتمها بقوله خذ حذرك . فستتعقد الأمور اذا ماعرضت نفسك لقبائل « الدناقل » .

قضيت ليلتى الأولى فى المخيم ، . . . وامتلأت نفسى عزما وأصرارا على المضى فى المغامرة حتى النهاية ، وأمضيت شهرا ، أسير فى أرض قاحلة ، معادية ، كنت الأوروبى الوحيد فى هذه الأصقاع ، ولم يكن الى جانبى من أسأله النصح أو أستهديه المشورة . ولو أننى تعرضت للمشاكل مع « الدناقل » لما وجدت المساعدة ، أو مرضت فلن أجد من يداوينى . حقاً ، لقد عانيت الكثير من التعب والعطش والخوف والوحدة . . . ولكننى تذوقت طعم الحرية ، وحصلت على الخبرة التى كنت أنشدها . .

كان شهراً حاسما فى حياتى ، عدت بعده إلى أكسفورد ، وصور ما رأيت فيه ، تتزاحم فى مخيلتى . . تراءت لى جماعة من «الدناقل» وهم يسندون أيديهم على رماحهم ، بقاماتهم المشوقة .. بملابسهم القصيرة ، وشعرهم المجعد الذى لطخته الزبد ، وبدت لى ، عن بعد ، معسكرات الأكواخ ، ذات القباب ، فى ضوء شمس المغيب ، وتراقصت أمامى مياه النهر ، وهى تسير فى بطء بينما تتمشى التماسيح على ضفافه ، وقفزت أمامى صور الغزلان ، وهى تشق طريقها فى رشاقة إلى جانب ثيران الكورو ذات القرون اللولبية العظيمة ، ورأيت النسور تنقض فى ثبات وثقة على فرائسها . . تخيلت كل هذا ، وتناهى إلى سمعى شدو رجال قافلتين من الصوماليين بأغانيهم الوطنية حول نيران المخيم . . فصممت على العودة لاستكشاف مجاهل نهر «العواش» .

ومضت سنوات ثلاث ، عدت بعدها إلى الحبشة برفقة « دافيد هيج توماس » لاستكشاف بلاد « الدناقل » . .

قضينا شهرين فى جبال « أروسى » ورأينا وادى « الرفت » ينخفض عنها بحوالى ٧٠٠٠ قدم . وسرنا فى الغابات أياماً ، ثم انحدرنا إلى السهول القريبة من منابع مياه (وبى شيبالى) ، حيث تبدو أجمل المناظر الجبلية فى الحبشة . وبعدها تركنا جبال (الشرشر) إلى حافة الصحراء ، فلفحتنا موجات من هواء حر لافح . وفى تلك الليلة ، تذوقت كأساً من لبن النوق ، فانتشيت فرحا وغبطة ، لأحساسى بأننى أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الصحراء ، غادة أحلامى . .

وصحراء (الدناقل) تقع بين سهول الحبشة والبحر الأحمر ، شمالى الخط الحديدى الذى يربط أديس أبابا بجيبوتى على الساحل . وهى بلاد ضارية

عبوس ، تتسم بالبدائية المتوحشة . قلما تسمح لأجنبي باجتياز مفازاتها . وفى هذه البلاد هلكت بعثات الاستكشاف فى نهاية القرن الماضى . . . وفى هذا القرن ، بل فى سنة ١٩٢٨ ، على وجه التحديد ، لم يتمكن من اجتيازها إلا رحالة إسمه (نسبت) مع رفيقين له ، ويعتبر الثلاثة أول أوربيين خرجوا من هذه البلاد أحياء . وإن كانت مقاومة (الدناقل) لهم قد حالت بينهم وبين متابعة مجرى نهر (العواش) حتى نهايته . . .

والدناقل قبائل رحل، تمت بصلة إلى الصوماليين. ماشيتهم الجمال والخراف والماعز ، وسراتهم يملكون الخيول التى يستخدمونها فى الحرب . ويعتنقون الإسلام ظاهرياً. ويختار الحاكم من أشد المحاربين بأساً ، ويمكن الحكم على ذلك من عدد الرجال الذين قتلهم أو أحدث بهم عاهات . . وللمحارب ، بعد كل عملية قتل ، أن يتحلى بنوع خاص من الزينة ، كريشة نعام ، أو مشط ، أو سوار أو ثوب ملون . ومن هذا يستطيع المرء ، دون مشقة ، أن يعرف عدد الذين قتلهم ذلك الرجل . .

وأصابنى سوء الحظ فى (دافيد هيج توماس) الذى التهبت حنجرته ، خلال رحلتنا فى الجبال ، فلم يستطع مواصلة الرحلة إلى بلاد (الدناقل) . غادرت محطة (عواش) وحدى ، مع أربعين رجلا من الصوماليين والأحباش ، كلهم مسلحين بالبنادق . وقد قصدت أن نظهر بمظهر القوة إرهاباً لمن تحدثه نفسه بالعدوان علينا . وبدأت الرحلة سريعاً ، فقد علمت أن الحكومة الحبشية تنوى منعى من القيام بها . . .

وبعد انقضاء أسبوعين وصلنا إلى حافة بلاد (الدناقل) ، ونزلنا فى إحدى قراها . ولكننى لاحظت أن القرية كانت فى حالة اضطراب وفوضى

إذ نهبت ، وقتل العديد من رجالها . . .

فقبائل (الدناقل) كانت منقسمة على نفسها إلى قسمين (الساعمارة) ، (أداعماره) . وقبائل (الساعمارة) أشد من قبائل (أداعمارة) قوة ، وهم يقطنون منطقتى (بهدو) و (عوسة) . وكانت جميع القبائل التى مررنا بها تخشى محاربى (بهدو) وقد حذرتنا قبائل (أداعماره) أنه لا أمل فى نجاتنا من الذبح إذا دخلنا (البهدو) التى كان يحميها من الجنوب ممر يقع بين منحدر منخفض وبعض المستنقعات . وقد اجتزنا هذا الممر عند الفجر قبل أن تشعر بنا قبائل (الساعمارة) . ثم توقفنا ، وأقمنا الحواجز حول معسكرنا من الأحمال وسروج الجمال ، بينما كان النهر يحمى المعسكر من الناحية الأخرى وما أن انقضت فترة ليست بالطويلة حتى فاجأتنا جموع (الدناقل) الثائرة المسلحة . وتذكرت ساعتئذ ما رواه لى أحد مرافقى ، من أنه منذ ثلاثة أعوام ذبح فى نفس المكان ، الذى نحن فيه ، إثنان من اليونان مع خدمهم . فتوقعنا أن نهاجم ، وأخذنا أهبتنا للقتال . ولكن المعركة لم تنشب ، واستطعنا فى اليوم التالى ، أن نقنع شيخاً مهزولا لا يكاد يبصر ، وإن كان ذا نفوذ على البدو ، أن يزودنا بالمرشدين وبالرهائن : .

وسار كل شيء حسب ما نهوى إلى ماقبل الغروب . لقد تسلمنا رسالة من الحكومة بسبب وصولها ، ثورة شديدة بين الدناقل ، وكانت مكتوبة باللغه الأمهرية . فاجتمع الدناقل حول رئيسهم المسن ، وقمت بترجمة الرسالة إنها تأمرنا بالعودة فوراً ، فالقتال ناشب بين القبائل . وانقسم رجالى فريقين ، فريق يلح فى العودة ، وفريق آخر يترك لى الخيار . وأدركت نتيجة تجاهلى أمر الحكومة بالعودة ، وإتمام رحلتى مع مجموعة قليلة من الرجال ، أن نهاجم ويقضى علينا جميعاً . ولهذا صممت على العودة ،

وإن عز على هذا الأمر كثيراً ، لقد دخلت « البهدو » بنجاح ، وتخطيت أول عقبة وقفت فى طريقى ، وهاأنذا أرى خططى تتحطم وتتهاوى أمام عينى جميعاً .

ومررنا ، فى طريق العودة ، بخرائب وأطلال قرية « أداعماره » الكبيرة . وعرفت أسرار المعركة . لقد أرسل رجال « الساعماره » سبعة من مندوبيهم المسنين ليناقشوا مع أهل قرية « أداعماره » الخلاف حول مرعى وقابلهم أهل القرية بجفاوة بالغة . . . ولما جن الليل قاموا اليهم فذبحوهم جميعاً إلا واحداً تمكن من الهرب ، وهو الذى داويت جروحه فى «البهدو» وكانت النتيجة أن كال رجال «الساعمارة» لغرمائهم الصاع صاعين ، فهاجموا قريتهم وقتلوا منهم واحداً وستين رجلا . . .

عدت إلى أديس أبابا ، وقضيت فيها ستة أسابيع قبل أن أقنع حكومتها بالسماح لى بالعودة إلى الرحلة . وقد سمح لى بذلك بعد أن وقعت إقراراً يرفع عن الحكومة كل مسئولية عما قد يصيبنى . وعدت ، فوجدت رجالى وقد أصابتهم الحمى التى تنتشر على ضفاف نهر « العواش » . كانو فى حالة يرثى لها من الضعف . وقد أصر بعضهم على أن أدعهم وشأنهم . . .

كانت حكومة أديس أبابا قد سمحت لى بمرافق اسمه « مرام محمد » ، كان رئيساً أكبر لقبائل البدو ، وكان قد زار الحكومة فأخذته رهينة عندها ، كى تضمن حسن معاملة قبائله لى . ولكنه رفض كفالة سلامتى فى « البهدو » مما كان سبباً فى استدعائى إلى أديس أبابا . أما وقد وافق على مرافقتى ، فإن وجوده معى سيضمن لى فرصاً نادرة وحسن استقبال أينما حللت .

وفى خلال عودتى إلى «البهدو» قضيت أياماً فى قرية يحكمها رئيس حدث

اسمه «حمدو أوغا» ، وقد سرتني صحبته لدماثة خلقه وسحر حديثه . وعلى الرغم من حداثة سنه فقد علمت أنه قتل رجالا ثلاثة على حدود الصومال الفرنسى ، وتصادف أن كان يحتفل بذكرى هذا النصر عند وصولنا إلى قريته ، وذلك بتزيين رأسه بريش الأوز . ولسوء الطالع أن هذا الفتى قد قتل بعد انقضاء يومين على وجودنا فى قريته بعد أن هاجمت قريته قبيلة أخرى .

سرنا إلى « جاليفاج » على حدود « عوسا » حيث قضينا ستة أسابيع فى مخيم على مقربة من الغابة . وجدير بالذكر أن الرحالة (نسبت) ، الذى تقدم ذكره ، التق بالسلطان (محمد يايو) فى نفس هـــذا المكان . وسمح السلطان للرحالة بإكمال رحلته . وكان السلطان (محمد يايو) يرتاب فى الأوروبيين ولا يثق فيهم ، بعد أن وجد الفرنسيين والايطاليين يحتـــلون الساحل كله رغم أنه لا يضم ألا حقولا رملية وترابا مالحاً . وكان يعتقد أن أية دولة أوروبية تتمنى لو احتلت سهول (عوسا) الغنية ، لاسيما إذا علمت أن بها معادن .

كنت فى طريقى إلى (عوسا) أتعرض لمشاغبات قبلية . أما الآن فانى بسبيل مواجهة حاكم مستبد ، كلمته هى القانون . فاذا قدر لى أن اموت ، فسأموت بأمر من السلطان . دون أن يكون لرجال القبائل فى الغابات أى صلة بمقتلى .

صدرت الأوامر ببقائى فى (جليفاج) . وفى مساء اليوم الثالث لبقائى سمعت أبواقا على مبعدة ، وعند الغسق ، اتانى رسول من السلطان يعلن عن رغبته فى استقبالى . تبعت الرسول ، عبر ممرات الغابة الملتوية حتى وصلنا

مكانا فسيحاً . وهنا رأيت قرابة الأربعمائة رجل ، وقد اجتمعوا فى الجانب الخلفى من المكان ، وهم بكامل أسلحتهم وعتادهم الحربى . ملابسهم نظيفة ، بيضاء ، تلمع فى ضوء القمر ، كانوا سكوتا ، وكأن على رؤوسهم الطير . وأمامهم رجل ، ضئيل الجسم ، أسود اللون ، بيضى الوجه . كثيف اللحية يجلس على كرسى من الخشب ، وقد علته ، حلة بيضاء ، تتألف من قميص طويل ورداء يغطى كتفيه ، وقد تمنطق بسكين ذى قبضة موشاة بالفضة .

وألقيت على الرجل السلام بالعربية ، فنهض من كرسيه . وأشار إلى بالجلوس على كرسى آخر . ثم أومأ لرجاله أن يبعدوا ، فتراجعوا الى مشارف الغابة حيث جلسوا القرفصاء فى هدوء.

كنت مدركا لأهمية اجتماعى بالسلطان ، وما يمكن أن يترتب عليه من نتائج . بل كنت أعلم أن حياتى تتوقف على نتيجة هذا الاجتماع . ورغم هذا فلم استشعر الخوف ، ولم اتهيب الموقف . وتكلم السلطان فى هدوء ، لييسر عملية الترجمة التى كان يقوم بهـا مرافقى الصومالى . تبادلنا ، أول الأمر ، المجاملات المعتادة ، ثم سألنى عن رحلتى . كان قليل الكلام ، ضنينا بالابتسام وسادت حديثنا فترات طويلة من الصمت . وأبلغنى السلطان رغبته فى رؤيتى صباح اليوم التالى . وعدت إلى المخيم ، وأنا اجهل ما يخبئه لنا المستقبل : وفى الصباح ، اجتمعنا ، وفى نفس المكان .

واستفسر منى السلطان عن مقصدى ، وصارحته برغبتى فى تعقب النهر حتى نهايته ، وسألنى ما إذا كنت أعمل لحساب الحكومة . وأسئلة أخرى كثيرة . ولم احاول ان اشرح له مدى حبى للاستكشاف حتى لا اضيف إلى صعوبة مهمة المترجم . وحقق السلطان مع مرافقى من البدو . وبعد ذلك

منحنى إذن القيام بتعقب النهر من أول (عوسا) إلى آخرها . ولست أفهم السر فى منحى هذا الإذن الذى لم يمنح لأوروبى من قبل . . .

وتتبعت النهر ، عبر غابة كثيفة ، ومررنا ببحـــيرات ومستنقعات . وودت لو قضيت الأسابيع فى تلك الجهات الساحرة . ولـكن مرافقنا كان يستحثنى على الاسراع . فالسلطان قد أذن بالمرور لا بالإقامة ، وكان مما لاحظته أن نهر (عواش) يدور حول براكين (ألجيرا) ثم يعود ليدخل الصحراء حيث ينتهى فى بحيرة (أبهيباد) المالحة . لقد بدأ النهر من مـكان بعيد عن سهول (أكاكى) كى يصب هنا فى هذا العالم الميت . . . وهذا ماجئت كى أشهده بنفسى ، ولأرى ثلثمائة ميل مربع من المـــاء المر ، تطفو عليه حشائش حمراء بلون الدم المتجمد .

أمواج هينة ، مزجت بوحل أسود لزج . ومياه ساخنة تتفجر عنها صخور نارية . منظر يبعث الرهبـة والخشوع فى النفوس . وأشعة الشمس تـكاد تحرق رؤوسنا ، لايخفف من قسوتها إلا مرور قوافل الطيور بين الحين والحين . وعلى الشاطىء ، رقدت بعض التماسيح الهرمة ، التى بهرها منظرنا ، دون ريب ، فتطلعت الينا بأعين صفراء لاتغمض ، وكأنها ترمز إلى جـو المـكان الذى تعيش فيه وروحه .

وقد روى لنا بعض « الدناقل » ممن رافقونا أن آباءهم قتلوا عدداً كبيراً من الأتراك فى نفس هذا المكان ، ورموا بأسلحتهم فى البحيرة . ومن المؤكد أن يكون هذا الموضع هو الذى أبيدت فيه بعثة مونزيجر عام ١٨٧٥ . . .

وقضيت فى « عوسا » بضعه أيام ، ثم اخترقت الحدود إلى الصومال الفرنسية ، حيث مكثت فترة فى بلدة « ديكيل » ومنها عبرنا الصحراء البركانية

إلى «تاجورا» على الساحل . لقد سرنا قرابة اثنى عشر يوما ، نكافح فوق الصخور الحادة ، عبر الجبال والوديان ، وقد نفق أربعة عشر جملا جوعا ، قبل أن نصل إلى « تاجورا » . . . وما أن وصلنا «تاجورا» ، وأخذت حظا من الراحة والاستجمام ، حتى بدأ السأم يدب إلى نفسى ، لقد انتهت الرحلة ، وبدأ لى المستقبل فارغا . وسأعود ثانية إلى حياة المدينة الجافة ، حيث لا مفاجآت ، كتلك التى قابلتنى خلال الأشهر الثمانية الأخيرة .

لم يكن ثمة بد من العودة إلى انجلترا ، وفى عام ١٩٣٥ سافرت إلى الخرطوم موظفا بالسلك السياسى ، وكنت فى ذلك الحين أناهز الرابعة والعشرين ، ووجدت الخرطوم على غير ما كنت أتخيل ، إنها فى عمرانها ، لا تكاد تشبه بلداً أفريقياً من التى زرتها ، بل إنها لتبدو لى وكأنها إحدى ضواحى أكسفورد . وكرهت فى الخرطوم كثرة الدعوات والبطاقات والكرمات (الفيلات) المنظمة ، والطرق المعبدة ، والشوارع المخططة . وتاقت نفسى إلى الفوضى ، والحياة البدائية فى أسواق أديس أبابا . . إننى أريد لونا آخر من الحياة ، الحياة المليئة بالمتاعب والمغامرات . وقد استشف تلك الرغبة عندى حاكم دارفور البريطانى « شارل دوبتيس » فطلب نقلى إلى مديريته .

وسافرت إلى « كوتوم » شمالى دارفور ، وعملت مع « كاى مور » ، ذلك الرجل الإنسانى ، الذى جاء إلى السودان من صحراء العراق ، حيث كان يعمل موظفاً سياسياً فى نهاية الحرب العالمية ، وكثر حديث « كاى مور » عن أيامه التى قضاها بين العرب ، وقد تركت ذكرياته ، عن هذه الأيام ، أكبر الأثر فى نفسى . لقد كنا الانجليزيين الوحيدين فى مديرية ، تعتبر أكبر مديريات السودان ؛ إذ تبلغ مساحتها ٥٠,٠٠٠ ميل مربع . وهى بلد صحراوى ؛ سكانه لا يزيدون فى ذلك الحين عن مائة وثمانين ألف نسمة .

وهم خليط من قبائل عربية رجل ، ومن جماعة من أصل بربرى ؛ وآخرون من الزنوج يسكنون التلال والأجزاء الجنوبية . ومن بينهم شعوب « البقرة » ويقصد بهم العرب الذين يمتلكون الماشية . ولهم شهرتهم فى الشجاعة أيام حرب الدراويش . .

وكانت الإبل وسيلتى الوحيدة للسفر فى السودان ، وكنت قد استعملتها من قبل فى بلاد « الدناغل » ، ولكن ، لا للركوب بل لحمل الأثقال . أما فى السودان فها أنذا أركبها للمرة الأولى فى حياتى . . .

وغالباً ما كنت أسافر برفقة ثلاثة أو أربعة من رجال القبائل المحليين . وما اعتدت استخدام غرباء من أهل المديرية . وكنا نلتمس طعامنا عند أهل القرى . وفى بعض الأحيان كنا نقوم بطهو وجبة بسيطة من الحساء ، ونأكل جميعاً من صحفة واحــــدة وكنت أنام إلى جوارهم ، وقد اعتدت أن أعاملهم كزملاء ، لا كخدم : وقد أثارت الإبل ، اهتمامى أكثر من الجياد . وأذكر أننى قطعت مسافة مائة وخمسة عشر ميلا ، على ظهر جمل ، فى ثلاث وعشرين ساعة . وبعد عدة أشهر من المران قطعت المسافة من جبل (ميدوب) إلى أم درمان ، أى أربعمائة وخمسين ميلا فى تسعة أيام . . . وسافرت فى أول شتاء قضيته فى السودان ، إلى الصحراء الليبية حيث أمضيت شهراً . وكنت قد اعتزمت أن أزور مجموعة من آبار النطرون . وهذه المنطقة من المواقع القليلة التى يوجد فيها المــاء فى هذه الصحراء . وقد علمت أننى إذا طلبت الذهاب إلى هذه الجهات من الخرطوم ، فان طلبى سيرفض ، ولهذا قررت أن أسافر إليها دون أن يعلم أحد . . .

وبدأت سيرى من جبل (ميدوب) ، يصاحبنى خمسة من الرفاق . ولكى

نصل إلى منطقة آبار البترول : يتحتم علينا السير ثمانية أيام دون أن نلتقى بقطرة ماء . وفى اليومين الأولين من الرحلة ، رأينا الوعل الأبيض وبعض النعام ، وبعد ذلك لم نعد نرى حياة . . .

وانقضى الزمن ساعة بعد ساعة ، ويوما إثر يوم ، دون أن نجد جديداً . وخيم هدوء لم يكن يعكر صفوه إلا هبوب الرياح العاتية فى هذه الأصقاع الممتدة ، البعيدة عن عالم الحياة . . .

وانتهت الرحلة ، وعدت إلى (الفاشر) ، مقر القيادة العامة ، كى أقضى عطلة عيد الميلاد . ودار الحديث ذات يوم ، عن احتلال الإيطاليين لمنطقة (آبار النطرون) ، وكانوا قد احتلوا قبل ذلك واحة (عوينات) الواقعة على الحدود السودانية الليبية . وكانت نتيجة ذلك تبادل الإنذارات وإرسال الاحتجاجات . وعلمت بعد ذلك أن تقريراً قد قدم إلى المسئولين عن وجود رجال بيض فى منطقة (آبار النطرون) يحتمل أن يكونوا من الإيطاليين . وقد اعتبر المسئولون فى السودان هذا الأمر عدوانا أكبر من جانب الإيطاليين. فأعلنت حالة الطوارىء ، ونقل مقر الطيران الى (وادى حلفا) . وعند سماعى هذا الحديث انبريت لتكذيب الخبر معلنا أننى قدمت ، منذ عهد قريب ؛ من منطقة (آبار النطرون) ، وأننى لم أر هناك إلا بعض العرب . وأعقب تصريحى هذا وجوم من الجميع وذهول وصمت . وعلى أثر ذلك أعلن قائد السرية الغربية أنه من المرجح أن نكون ، نحن من ظنوهم جنوداً ايطاليين .

وعند ما سافرت إلى الخرطوم ، فى أجازة ، حدثنى السكرتير المدنى للحكومة السودانية ، فى حزم يشوبه العطف قائلا « ليس من المعتاد أن يسافر ديبلوماسى إلى مديرية غير المديرية التى يعمل فيها ، دون موافقة مدير

مديريته ، كما أنه من المحتم عليه ألا يتجول فى منطقته غير منطقة دون إذن من حاكمها » . :

وفى نهاية سنة ١٩٢٧ وصل إلى علمى نبأ نقلى إلى (واد مدنى) مقر قيادة النيل الأزرق ، ومركز مشروع قطن الجزيرة ، وقد أقنعت السكرتير المدنى أن يسمح لى بالاستقالة من الخدمة السياسية الدائمة ، وأن أعين بعقد ، على أن تكون خدمتى فى المجاهل والمناطق غير المستكشفة . . .

لقد قضيت فى (دارفور) ، فترة من أسعد أيام حياتى ، وحببتنى فيها خشونة الحياة ، وكثرة التنقل بين أرجائها ، والرحلات التى قمت بها فيها ، لقد أتاحت لى اقامتى هناك ، فرصة التسلل وراء الغنم البرى على مقربة من جبال (ميدوب) ؛ أو وراء ثور الكورو فى تلال (تاباجو) ؛ أو اصطياد الغزلان والوعول على حافة الصحراء الليبية ، وكم كان مثيراً أن نهجم على أسد عبر الصحراء ، نطارده حتى ينال منه التعب ، والعرب يلوحون برماحهم ويصيحون وهم يطوقون البقعة التى يربض فيها إنى لجد فخور بأولئك العرب الذين عاشرتهم هناك ، وأنى لأغدق التقدير كله لمزاياهم وصفاتهم وأحيى فيهم حفاظهم على تقاليدهم الموروثة . . .

عينت بعد ذلك فى لواء « النوير « الغربى » وموقعه منطقة أعالى النيل . فسافرت الى هناك عقب عودتى من الأجازة التى قضيت جزءا منها فى مراكش

وقبائل « النوير » من شعوب أعالى النيل ، وهم قريبو الشبه فى عاداتهم وحياتهم من قبائل « الدنكا » و « الشلوك » . ويعيش هؤلاء الأقوام فى منطقة « السدود » التى تقع بحذاء النيل الأبيض جنوبى « ملكال » معيشة الرعاة وهم يملكون قطعانا كبيرة من الماشية . أما من حيث الصفات الجسمانية

فهم طوال القامة ، عراة الأجسام ، بدائيون ، ذوو وجوه مترفعة ، وشعرهم ذهبي اللون طويل . وقد استولى الانجليز على هذه المقاطعة عام ١٩٢٥ بعد قتال مرير ، إنتزع فيه شعبها إعجاب الانجليز ببسالته وبطولته . .

كنت سعيدا ، إذ كنت أعيش بمعزل عن بقية أجزاء السودان . ولم أشعر يوما بالسأم لأن تلك الأصقاع كانت حافلة بمسارح الصيد . لقد شاهدت مرة ألف فيل فى قطيع واحد على ضفة النهر . وكان هناك العديد من الجاموس ، ووحيد القرن ، وفرس النهر ، والزراف ، وأنواع عدة من الوعول والغزلان ، كما كانت توجد النمور والأسود ، وقد بلغ عدد السباع التى قتلتها خلال السنوات الخمس التى عشتها فى السودان سبعين أسدا . . .

وفى منطقة السدود هذه ، رأيت أفريقيا سافرة عن وجهها الحقيقى الذى الذى تخيلته وقرأت عنه ، وأنا حدث . . . أفريقية التى يئست من العثور عليها يوم أن رأيت مدينة الخرطوم لأول مرة . أما فى هذه المنطقة فقد رأيت الزنوج عراة كيوم ولدتهم أمهاتهم ، يسـيرون فى صفوف عبر السهل الغاص بالغزلان . . . رأيتهم يتعقبون قطعان الجاموس من وراء الأشجار . . . شهدت الفوضى والهرج اللذين يسودان المرقص عندما ينقض العرب على الأسد الرابض على فريسة أعدت لاقتناصه . إن ذكريات الصحراء تبعث فى نفسى نشوة خاصة . . .

ولذلك ، ما أن منحت أجازة عام ١٩٣٨ حتى قررت قضائها فى الصحراء وعزمت على رؤية جبال « تيبستى » تلك الجبال التى لم يكن يعرفها الا الجنود الفرنسيون ، الذين كانوا يرسلون للخدمة هناك : . .

فاستأجرت أبلا من « دارفور » ، واصطحبت شيخا وصبيا لمرافقتى فى

الرحلة . وكان حتما أن تكون الجمال التى اختارها معتادة تسلق الجبال . وسافرنا وأحمالنا خفيفة . فالمسافة طويلة ، والوقت قصير . . .

وسارت قافلتنا الصغيرة مسافة طويلة ، سرنا بعضها ، وركبنا فى البعض الآخر ، وأمضينا فى ذلك حوالى العشرين ساعة . وأخيرا ، وصلنا بركان « تيبستى » ورأينا فوهته المفتوحة ، وتسلقنا البركان بصعوبة ، حتى وصلنا فوهته التى ترتفع أحد عشر ألفا ومائة وخمسة وعشرين قدما عن سطح البحر بينما يبلغ طول الثقب أسفل الفوهة حوالى ألف قدم . . .

إن المنظر لجد موحش فى هذه البقعة . . الصخور فى حالة تفتت من تأثير عوامل التعرية . إنها بلاد كئيبة حقاً . . . وعدنا الى « دارفور » بعد أن قطعنا قرابة ألفى ميل فى ثلاثة أشهر . . .

لقد حصلت فى الصحراء على حريه ما كنت لأحصل عليها فى المدن . وعشت فيها حياة لا تعرف القيود . كل ما ليس ضروريا يمكن الاستغناء عنه عرفت معنى الصحبة وواجبات الزمالة . . . ذقت طعم الهدوء والطمأنينة والمتعة الحقيقية التى تنبع عن القناعة والزهد .

ورجعت ثانية الى (النوير) فساورنى الانقباض من جديد . وحاولت جهدى أن أنفرد بنفسى ، بعيداً عن جمهور العراة . .

لقد جعلت منى رحلتى إلى « الدناقل » رجلا لا يصلح للحياة بدون رحلات . لقد أذكت طموحى ، وشدت عزيمتى ، وأثارت شوقى للبحث عن المجهول . كان من الممكن أن تشبع بلاد « النوير » رغبتى وهيامى بتلك الرحلات ، غير أن أعوامى الثلاثة التى قضيتها فى « دارفور » ،

ورحلتى الأخيرة إلى (تيبستى) جعلتنى أطلب المزيد ، مما وجدته فيما بعد فى صحراء شبه الجزيرة العربية . .

ألتحقت بقوات الدفاع السوداني فى ابريل عام ١٩٤٠ ، أثناء اندلاع الحرب العالمية الثانية . وانخرطت بعد ذلك فى بعثة (ساندفورد) التى مهدت الطريق لعودة هيلاسلاسى إلى العرش . وبعد أن تحررت أديس أبابا ، غادرت الحبشة إلى سوريا ، حيث خدمت فى جبل الدروز ، وعشت هناك سنة بين القبائل العربية . . .

كانت الصحارى التى سافرت اليها فى الماضى ، فراغا تاما ، فلم يكن لها تاريخ معلوم ، كما أنه لم يكن للشعوب التى سكنتها ماض معروف . أما فى سورية ، فإن معالم التاريخ البشرى كانت حافلة على حدود الصحراء . فدمشق وحلب مدينتان قامتا قبل أن توجد روما . وإذا كانت الفتوح قد كدست الخرائب بعضها فوق بعض ، واذا كانت كل غزوة تعنى مستعمراً جديداً ألا أن الصحراء العربيـــة ظلت دائماً بمنأى عن الغزاة ، لم تطأها قدم مستعمر . .

وعشت فى سوريا بين قبائل ، زعموا أنها من نسل اسماعيل علية السلام ، واستمعت إلى شيوخ القبائل يقصون على السامعين وقائع حدثت منذ آلاف السنين وكأنهم عاشوا فيها . لقد ذهبت إلى سوريا وأنا مؤمن بامتيازى العنصرى ، ولكننى فى خيام هؤلاء العرب ، شعرت وكأننى مواطن متواضع يتكلم لغة غير مفهومة ، أو دخيل من عالم مجهول . لقد تعلمت منهم الكثير وخاصة ما يتعلق بالمجاملات والترحيب وحسن الاستقبال وكرم الضيافة .

وبعد سوريا ، ذهبت إلى مصر والصحراء الغربية حيث التحقت بالفرقة

الجوية الخاصة . وعادت بى الأحداث إلى الحبشة ، فى السنة الأخيرة من الحرب . إذ عينت مستشاراً سياسيا فى (ديسى) الواقعة فى الشمال . ولكن الحبشة لم تكن بحاجة إلى سياسيين بل إلى فنيين ، فقدمت استقالتى . وحدث أن تقابلت والمستر (لين) فى أديس أبابا ، وهو عالم اخصائى فى الجراد الصحراوى ، يعمل تحت إمرة منظمة الزراعة والأغذية فى روما وعلمت من مستر (لين) أنه بحاجة إلى شخص يصطحبه معه إلى منطقة (الربع الخالى) فى شبه الجزيرة العربيه لجمع المعلومات عن تحركات الجراد . فسارعت إلى قبول المهمة ، برغم أنى لست على علم بعالم الحشرات . ووافق (لين) الذى أكد عدم أهمية ذلك ، إلى جانب وجود الرغبة فى السفر . . :

والحقيقة أن الماضى الذى عشته كله ، انما كان مجرد تمهيد للسنوات الخمس التى عشتها فى صحراء العرب .

* * *

الباب الثانى

من (ظفار) تبدأ الرحلة

تبلغ مساحة صحارى شبه الجزيرة العربية أكثر من ميل مربع . والصحراء الجنوبية وحدها تبلغ نصف هذه المساحة . وهذه الصحارى تمتد من بلاد اليمن غربا حتى تلال عمان شرقا ، ومن الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة جنوبا إلى الخليج العربى وحدود نجد شمالا . ويمتاز الجزء الأكبر من هذه الصحارى بأنه مقفر تماما وموحش ؛ ويطلق العرب على هذا الجزء اسم (الربع الخالى)

وقد لفت (لورنس) نظر مارشال سلاح الطيران الملكى البريطانى عام ١٩٢٩ كى تمر طائرات السلاح فى طيرانها إلى الهند فوق صحراء (الربع الخالى) على سبيل الدعاية ، وكبدء لعهد استكشاف هذه البقاع .

وفى سنة ١٩٣٠ قطع (برترام توماس) هذه الصحراء من الجنوب إلى الشمال . كذلك اجتازها (جون فلبى) الذى ادعى الاسلام فيما بعد وسمى نفسه (عبد الله فيلبى) من الشمال إلى الجنوب : أما أنا فقد فكرت فى اجتيازها من الغرب ، كى أستطيع استكشاف المساحات الواسعة التى لم تستكشف بعد ، بين اليمن وعمان .

كنت قد رأت كتاب (برترام توماس) عن رحلته فى الصحراء العربية ، كما قرأت كتاب (لورنس) (ثورة فى الصحراء)، وقد أكسبتنى رحلة (الدناقل) حبا لحياة الصحراء وحسن فهم لها ، كما ان كتاب (لورنس)

أثار اهتمامى بالعرب . واتجهت أفكارى الى (الربع الخالى) حلم خيالى ومناط آمالى فى المغامرة والاستكشاف . . .

لا شك أن مشكلة الحصول على اذن الحكومات بالدخول إلى الاصقاع التى لم تكتشف بعد ، تقف على رأس المشاكل الرئيسية فى أى عملية استكشاف ولربما كان من المستحيل أن أقترب من صحراء (الربع الخالى) لولا ما أمدتنى بة وحدة مكافحة الجراد فى الشرق الأوسط ، من مساعدة . وبعد أن سمح لى بالدخول أصبح فى مكنتى التجول كما شئت ، دون أى اعتبار لحدود لا وجود لها :

لقد رأيت الجراد من قبل كثيرا فى السودان . وشاهدت أسرابه تغطى السماء كالسحب فى (وستى) وبوجه أخص فى مرتفعات الحبشة ، وكانت أغصان الشجر تتكسر أمامى من ثقل أسراب الجراد والمزارع الخضراء تتعرى فى بضع ساعات نتيجة لغزوه لها . لقد عرفت قوة الجراد فى التخريب ، رغم جهلى بعاداته . ولهذا اتجهت إلى السعودية قبل ذهابى إلى (الربع الخالى) بشهرين على أعلم شيئا عن الجراد وطرق مكافحته من مدير الحملة الذى كان هناك .

ولم يكن يسمح الا للقلة من الأوربيين بدخول السعودية ، على ان يحجزوا جميعا فى ميناء جدة ، على ساحل البحر الاحمر ، حيث يعيش الدبلوماسيون والتجار . اما موظفوا الجراد فقد كان لهم مطلق الحرية فى التجوال فى اى مكان شاءوا من البلاد :

لقد عرفت فى السعودية شيئاً عن نوع خاص من الجراد يسمى بالجراد الصحراوى. وعلمت أن هذا النوع من الجراد قد هدد منطقة الشرق الأوسط

كلها بالمجاعة خلال الحرب ، كما علمت أن أهم مركز لتوالده هو شبه الجزيره العربية .

لقد شاهدت مع فيسى (فيتزجرالد) مدير حملة مقاومة الجراد ، جموعا متكاثفة من صغار الجراد تمتد فوق مساحة طولها أميال وعرضها مئات من الياردات ، وقد أخبرنى أن هذه الجموع ليست إلا مجرد مجموعات صغيرة . وعرفت منه أن أرجال الجراد تتوالد فى الهند خلال فترة الرياح الموسمية ، ثم تغزو السودان وشرق أفريقيا فى مجموعات ضخمة ، غير أن المرض يمحو أثرها بعد فترة ، فيرتاح العالم من شرها ، اللهم إلا بعض صغاره المتناثرة . .

كان دكتور (أوفاروف) يعتقد أن بعض مراكز توالد الجراد قد يكون فى جنوب شبه الجزيرة العربية ، وكان على أن أذهب إلى هناك لأبحث عن هذه المراكز ، فلجنة المكافحة لا تعرف إلا القليل عن هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية . .

ووصلت إلى عدن فى نهاية سبتمبر سنة ١٩٤٥ وفى الخامس عشر من شهر أكتوبر ، طرت إلى (سلالة) عاصمة اقليم (ظفار) وهو يحتل ما يقرب من ثلثى الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية . ومن (سلالة) بدأت رحلتى .

كان محظوراً على الأجانب مغادرة المعسكرات دون حراسة . كما كانوا ممنوعين من محادثة العرب ، خوفا من وقوع الحوادث . وهذا الحظر ينطبق على أيضاً طوال فترة بقائى فى معسكر القوات الجوية البريطانية ، حيث نزلت . كانت قيوداً مزعجة الى حد كبير . ولا بد من العمل على تحطيمها بأية وسيلة .

وذهبت لمقابلة الوالى فى « سلالة » . وهى بلدة صغيرة بمحاذاة البحر ،

دون مرفأ . وعندما وصلتها كان الصيادون يصفون السردين ، وكانت أكوام السمك تجفف فى الشمس ؛ وكان قصر السلطان ، ذو الطلاء الأبيض الناصع أكثر الأبنيـــة ظهوراً وعظمة ، تحيطه البيوت الحقيرة ذات السقوف المنبسطة . . .

وفى طريقى الى القصر ، مررت بالمسجد . وقد قامت إلى جانبه أبنية قديمة من الحجر ، ومقبرة واسعة . وفى السهل حول المدينة ، انتشرت بعض آثار ، هى بقايا ماض خرافى ، لمدينة (أوفير) التى ورد ذكرها فى التوراة .

وكان قصر الوالى فى حراسة مسلحة ، معظم أفرادها من السود ، وقد رافقنى أحدهم إلى قاعة الاستقبال لمقابلة الوالى . كان الوالى رجلا مدنيا ، طاعنا فى السن ، يبدو عليه الوقار ، يلبس رداء أبيض حتى أخمص قدميه ، وقفطانا بنى اللون مطرزا بخيوط الذهب ، يلف رأسة بملفحه كشميريه الصنع ، ويتمنطق بخنجر كبير ، معقوف

حييت الوالى بالعربية . وقبل أن نبدأ الحديث ، قدم ألى أحد الخدم تمرا ، أكلت بعضه ثم دار الساقى بالقهـــوة المرة ، فشربت منها ثلاثة أقداح . .

وبعد أن اطمأن بى المجلس ، أخبرنى الوالى أن السلطان امره بأن يرافقنى فى رحلتى إلى (مقشن) جماعة من البدو ومعهم ابلهم . وانه قد أعد خمسة واربعين بدويا لهذا الغرض ، فشكرته على اريحيته ، وافهمته ان اثنى عشر بدويا يؤدون الغرض المطلوب . ولكنه اعترض بأن القنصل البريطانى فى مسقط ، الذى حصل على الأذن بالرحلة ، اتفق مع السلطان على ان يحدد الوالى عدد البدو اللازمين للرحله ، وان على ان أدفع ما يعادل عشرة

شلنات فى اليوم ، لكل رجل من المرافقين . واكد لى الوالى أنه لن يتحمل مسئولية التصريح لى بالسفر الى (مقشن) فى اقل من خمسة واربعين رجلا وحدثنى عن اعتداءات كثيرة حدثت على مقربة من (مقشن عندما سافر) (برترام توماس) سنة ١٩٢٩ ليقطع جبال (القرة) التى لا تبعدعنمعسكر الطيران بأكثر من ثمانية اميال . وتم الاتفاق آخر الأمر ، على تعبئة ثلاثين عربيا من قبيلة (بيت كثير) .وحدد موعد السفر بعد اسبوعين ، كى تتم الترتيبات اللازمة للمرحلة جميعا .

وقد أردت خلال هذه المهلة التى سأقضيهافى (سلالة) ، وأن أقوم بجولة فى جبال (القرة) وارسل الوالى اربعة من حراسه معى .

كان من الواضح أن سلطان (مسقط)لا سلطان له على سكان(القرة) رغم انهم يعيشون على مسافة أميال قلائل من « سلالة » .

وركبنا جمالنا ، واجتزنا سهل (جربيب) ثم توجهنا إلى جبل (القرة) الذى يعلو نحو ألفى قدم عن سطح البحر . ويحيط بهذا الجبل من جانبيه ، جبال أعلى منه بكثير ، تشرف على البحر . ولهذه الجبال ميزة جذبالسحب الموسمية ، مما يركز هطول المطر على المنحدرات الجنوبية لجبل (القرة) . ولهذا تظل مكسوة بالضباب حتى أيام الصيف .

وتبدو هذه الجبال جميلة ، وعلى سطحها تنتشر النباتات المتسلقة ، أما فى الوديان ، فتنمو أشجار التمر هندى العظيمة . وعلى المنحدرات ترتفع اشجار التين فوق الأعشاب المتماوجة .

وأقمنا خيامنا قرب قرية « القرة » . ورأيت رجال القبائل هناك وكأنهم

أبناء (بيت كثير) فى (سلالة) رغم أنهم كانوا يتكلمون لهجة خاصة بهم . ليست اللغة العربية التى يتكلمها أبناء (بيت كثير) . وكانت هناك قبائل ثلاث هى (القرة) ، (المهرة) ، (الحراصيص) . وهناك بقية من قبائل أخرى كقبيلة (الشاهرة) . وكلها تتكلم لهجات مختلفة من لغة واحدة ، قريبة جداً من اللغات السامية القديمة .

وسرت وراء مجرى ماء ، وكلى رغبة فى مشاهدة ما وراءه . ووجدت نفسى بين عالمين ، يختلف كل منهما عن الآخر اختلافا بيناً . فالى جهة الجنوب تقوم سهول خضراء ، ترعاها الماشية والأغنام ، بها نباتات وفيها أشجار . بينما تمتد ، ناحية الشمال ، صحراء قاحلة ، تغطيها رمال وصخور ، وبقايا عشب ذابل . نفس الحال فى سهول وادى النيل الخصبة ، تحيطها الصحراء المقفرة .

ويعيش أهل (القرة) فى شبه جماعات عائلية ، على سفوح الجبال . وهم يملكون ماشية من جمال وبقر وقطعان ماعز . ولا أثر عندهم للخراف أو الخيل أو الكلاب . وملكية أكثر العائلات فيها تتراوح بين العشرين والثلاثين بقرة .

وقد قرأت فى كتاب (توماس) أن من عادة أهل (القرة) أن تضحى الأسرة بنصف أبقارها عندما يموت عائلها . كما أن لهؤلاء القوم عادة أخرى لم أتعرف عليها إلا بين قبائل النوير فى السودان . وهى أنهم يمنعون النسوة من الامساك بضرع البقرة قبل أن يحلبها الرجل . فيجب أن يضع الرجل شفتيه على ضرع البقرة وينفخ فيه ، لتدر حليبها .

وفهمت من حديثى مع أهل (القرة) أنهم يعيشون عادة فى الجبل حتى شهر يناير من كل عام ، ثم ينزلون حيث يتجمعون أسفل الجبل فى مخيمات كالتى مررنا بأحدها فى طريقنا . أما جماعة الرعيان فينزلون متى بدأت الرياح الموسمية ، عائدين إلى الوديان ، حيث يدخلون حيواناتهم إلى الصخور الكلسية ، أو فى الأقبية المنخفضة المظلمة المصنوعة من الأحجار ، والمسقوفة بالعشب المجفف .

ظللت عشرة أيام فى (القرة) ، ثم جاء من ينبئنى أن القافلة قد تم اعدادها فى (سلالة) ولهذا قررت أن أرجع . وأتى بعض أهل (القرة) معنا ، حاملين زبداً وحطباً وعسلا بريا لبيعه فى السوق .

ودعانى الوالى إلى مقابلة بعض أفراد (بيت كثير) الذين سيرافقوننى فى الرحلة . وكان عنده ثمانية منهم عندما وصلت . وتأملتهم ، فرأيت ستة منهم يلبسون أغطية على رؤوسهم ، وأردية عربية تصل إلى ركبة كل منهم أما الاثنان الآخران ، فكان حاسرى الرأس ، يلبسان مايستر عورتهما فحسب . وكانوا جميعاً يحملون الخناجر ، وأحزمة الرصاص . وقد تركوا بنادقهم خارج قاعة الاستقبال . وشربنا القهوة وأكلنا التمر . كنت أسرح بخيالى ، كيف سأتعامل مع هؤلاء الناس .

كان من بينهم شيخ ، بلغ من العمر عتيا ، ذو لحية بيضاء ، قصيرة ، وعينان براقتان . إنه رئيسهم ، الشيخ (سالم الطمطائم) . فى الحلقة التاسعة من عمره ، ولكنه جم النشاط ، موفور الصحة ، بنى بزوجة جديدة منذ وقت قريب . وكان هناك رجل آخر ، يشبه فى سحنته الهنود الحمر أكثر مما يشبه العرب ، يرجع اليه الكل فى أمورهم دون (الطمطائم) . اسمه (سلطان) وأنه يبدو قائد الجماعة . وأشار الوالى إلى أحدهم قائلا إن (مسلم) سيضمن

لـكم اللحم فهو صائد معروف . وكان (مسلم) هـذا يرتدى رداء أبيض نطيفاً ، وغطاء رأس مطرز . وكان ضئيل الجسم كالآخرين . ولـكن بنيته كانت أقوى ، ورجليه كانتا مقوستين قليلا . ولم تكن البداءة تبدو عليـه . واتفقت مع أفراد (بيت كثير) على اللقيا فى اليوم التالى فى معسكر القوات الجوية الملـكية .

وجاء اليوم التالى ، وحضر المرافقون ، وبرفقتهم جمهور كبير من أهل (سلالة) ، كان منظرهم بدائياً وحشياً ، فغالبيتهم لايرتدون إلا ما يستر العورة ، وجميعهم مسلحون بالبنادق والخناجر . وقد عرضت على الطمطائم الشيخ ، وعلى سلطان القائد ، الطعام الذى أعددناه للرحلة ، من أرز ، وطحن ، وبلح ، وسكر ، وشاى ، وقهوة ، وزبد سائل . ولـكن سلطان لم يوافق على طريقة تعبئتها ، فتركت له ذلك الأمر .

وبعد أن تم إعداد كل شىء ، دخلت الـكوخ الذى كنت أقطنه ، فلبست ثيابى العربية ، كى اكسب صداقة هؤلاء القوم . والجدير بالذكر أن العقال الصوفى الأسود الذى يعتبر ميزة تميز اللباس العربى عند أهل الشمال ، ليس معروفا عند هذه القبائل .

كانت هذه هى المرة الأولى التى ألبس فيها الزى العربى . وقد شعرت بالخجل إلى أبعد الحدود ، فقد كانت ملابسى غاية فى النظافة والجدة ، بينما كانت ملابسهم قذرة رثة . وهناك أمر آخر . فقد كانوا جميعاً قصار القامة بينما كنت أبلغ ستة أقدام وبوصتين طولا .

فى رحلاتى السابقة فى الحبشة والسودان ، كنت أفرض احترامى كانجليزى فى الحبشة ثم كموظف ذى هيبـــة فى السودان . أما هنا فالأمر

جد مختلف . ولذا ، فقد حاولت ألا يكون هناك فارق بيني وبين مرافقي . وللمرة الأولى ، أسافر دون خادم .

لقد بدا لي ، من النظرة الأولى اليهم ، أنهم بدائيون كالدناقل . ولكنني سرعان ما اكتشفت أنهم ، على الرغم من استعدادهم للتسامح معي على أساس أنني مصدر رزقهم ، يعتقدون أنني أدنى منهم مرتبة . فقد كانو مسلمين وبدوا وما كنت انتمي إلى أي من هاتين الفضيلتين . وكانت الصحراء عالمهم الوحيد ، فلم تبد منهم اهتمامات بالأحداث التي تجرى خارج رمالها .

وأنخنا أبلنا ، وأقمنا معسكرنا الاول في جبال (القرة) . وانهمك الرجال في العمل ، كل في ناحية . وجلست بقربهم . وكم تمنيت لو انني انضممت اليهم في أعمالهم . ولكن تزمتي كان يفرض علي الوحدة والخجل . ودعاني الطمطائم العجوز لشرب القهوة معهم . وجلب (سلطان) أغطيتي وسرجي ووضع الجميع قرب النيران ، وبعد هذا طهى (مسلم) الأرز ، وأكلنا معاً .

وسألتهم عن (الربع الخالي) . هدفي المنشود ، وحلم حياتي ، فما وجدت فيهم من سمع بهذا الاسم . وسأل بعضهم بعضاً (عم يسأل وماذا يريد) الله وحده يعلم . لسنا نفهم ماتريد . وهتف (سلطان) قائلا (إنه يعني الرمال) . هذا هو الاسم الذي يطلقه سكان المدن في نجد والحجاز على صحراء جنوب شبه الجزيرة العربية .

كان صعباً علي أن أفهم كلامهم . لقد تعلمت العربية في السودان بين قبائل كانت تتكلمها وكأنها لغة ثانية . وبدأت استعملها في الحياة ، في سورية أثناء الحرب . ولكن ثمة فرق شاسع بين لغة سورية العربية واللهجة التي يتكلمها (بيت كثير) كانت ألفاظها ومدلولاتها تختلف كلية عما تعلمته من

قبل . وكان أفراد (بيت كثير) فى حيرة كذلك حيال لغتى . ولكن هذا لم يمنعهم من سؤالى عن (المسيحيين) وهل يعرفون الله هـل يصومون ويصلون كما يفعل المسلمون ، وهـل يتزوجون مثـل المسلمين بزوجة يعقد عليها ، أم يأخذون أية امرأة يشتهون ، وعندما يريدون .؟ هل يدفعون مهراً للعروس.؟وهل يملكون ابلا .؟وينتمزن إلى قبائل ثم كيف يقبرون موتاهم .؟ هذه ألوان من الأسئلة التى كان مرافقى العرب يوجهونها إلىّ . إن منظر السيارات أو الطيارات ، فى معسكر القوات الجوية الملكية ، لم يثر انتباههم ، فيسألون عن ماهيتها . لقد كانت البنادق الاختراع الوحيد الحديث الذى اهتموا به .

لقد تحدثوا إلى عن (برترام توماس) الذى اصطحبهم فى رحلة ، إنهم دقيقو الملاحظة ، لاينسون ، ميالون إلى الثرثرة ، يقضون الليل كله حول نيران المخيم ، لايملون الحديث ، وهم لا يرحمون من لايجدونه ذا صبر ، وروح مرحة ، وكرم أخلاق ، وإخلاص ، وشجاعة . كما أنهم لايمنحون الأجنبى عنهم حريته فى التصرف أو الحياة كما يشاء . بل يفرضون عليـه عاداتهم ، ومثلهم ، وتقاليدهم . وهذه حقيقة يعرفها كل من سافر فى صحبـة هؤلاء القوم .

لقد اعتادت هذه القبائل ، منذ نعومة أظفار بنيها ، متاعب الصحراء على اختلاف ألوانها . اعتادت شرب الماء المر النادر . اعتادت أكل الخبز الجاف المخلوط بالحصى والرمل . نشأت على احتمال مزعجات الرمل الطائر وتقلبات الطقس المفاجئة ، من برد قارس إلى حر لافح ، إلى ضوء يـكاد يغشى الأبصار فى أرض فضاء لا أثر للظل فيها . وفوق هـذا وذاك ، كان التوتر العصبي أسوأ مايقاسى الرحالة فى هذه الأصقاع . وكان من واجبى أن أعيش صعوبات الصحراء كلها دفعة واحدة .

فضيلة واضحة ، أذكرها لهؤلاء العرب ، إلى جانب فضائلهم الكثيرة .
لقد مرت على (برترام توماس) فى رحلته لحظات حرجة ، فقد فيها معين صبره ، واختلف مع رفاقه من (بيت كثير) لطبيعته الغريبة عنهم . ولكنني رغم ذلك ، ماسمعت يوما كلمة تحقير لهمن هؤلاء البدو . لقد انتقدوا بعض تصرفاته ، كإثقاله الإبل بالأحمال ، أو حبه للنوم فى عزلة عنهم . ولكنهم لم يحقروه ، بل أخذوا هذه الأمور منه على أنها طبيعية له ، قبلوها ، ولو لم يفهموها .

الباب الثالث

فى صحارى غنيم

كانت هذه الرحلة الأولى ، على حدود (الربع الخالى) ذات أهمية لى ، باعتبارها اختباراً مبدئياً لرحلات تالية ، أطول ، وأكثر مشقة . ولقد تعلمت ، خلال الأشهر الأولى من هذه الرحلة ، أن أتأقلم ، وأن أكيف نفسى حسب طرائق البدو فى حياتهم .

وكان رفاق الرحلة يصحون مبكرين ، ويبدأون العمل قبل انفلاق الصبح ، وكم دار بخلدى أن البرد ربما كان السبب فى صحوهم المبكر ، فلم تكن لديهم أغطية كافية للتدفئة . ولكننى كنت أسمع صيحاتهم ، وهم ينهضون الجمال من مراقدها ، فتهدر الجمال ، ثم تمر أمام عينى ، فى تثاقل ، وقد قيدت أرجلها الأمامية خوفا من شرودها . ويقودها صبى إلى أقرب مكان للرعى بينما يدعو أحد الرجال إلى الصلاة مؤذناً . الله أكبر .

كانت موسيقى الكلمات العذبة البطيئة . كما يبدو الآذان ، تخيم على المعسكر الصامت . وكنت أراقب (الطمطائم) العجوز ، وهو يتهيأ للصلاة بالوضوء ، مع شدة البرد ، وكان يقوم بعمليات الوضوء ، فى دقة وترتيب ، يغسل يديه مرات ، ثم ينشق الماء مرات ، ويمضمض فمه كذلك . وبعد ذلك يغسل وجهه وقدراً كبيراً من ذراعيه ، ثم يمر بيديه المبللتين فوق رأسه ، ويدخل أصابعه المبللة فى أذنيه ، ثم يغسل رجليه .

وقد لاحظت أن أفراد (بيت كثير) كانوا يصلون منفردين ، كل منهم فى مكان بعيد عن الآخر ، بينما كان (آل الرشيد) الذين سافرت معهم بعد ذلك ، يصلون جماعة ، بعد أن يصطفوا صفوفا منتظمة ، يؤمهم شيخهم . وعلمت من مرافقى أن على المسلم أن يصلى خمس مرات فى اليوم ، عندالفجر وفى الظهيرة ، وفى العصر ، وعند الغروب ، وبعد غياب الشمس (العشاء) . أما آل (بيت كثير) فكانوا يصلون الصبح والمغرب ، تاركين بقية الصلوات .

وبعد صلاة الصبح ، كانت تصل إلى أذنى ، عادة ، طرقات ذات وقع موسيقى . هى دقات أحد الأعراب ، الذى وكلت اليه مهمة إعداد قهوة الصباح ، فأنهض .

جرت عادتنا فى الصحراء أن ننام فى ثيابنا ، فكان كل ما أفعله فى الصباح أن ألبس غطاء الرأس ثم أصب بعض الماء على يدى لأغسل وجهى . وبعد ذلك أذهب إلى حيث موقد النار ، فأحيي الأعراب الجالسين حولها قائلا (السلام عليكم) فينهضون قائلين (وعليكم السلام) . إن البدو يردون التحية دائما واقفين .

وكان من عادتنا أن نعد بعض أقراص الخبز لطعام الإفطار ، إلا إذا كنا فى عجلة من أمرنا . فى مثل هذه الحالة ، كان يكفينا تناول بقايا خبز وجبة عشاء الليلة السابقة . وكنا نشرب الشاى الحلو والمر ، وكذلك القهوة التى كان شربها عملا رسميا لايجوز التهاون فيه . كان الخادم يقف ويصب قطرات منها فى قدح صغير ، يقدمه لكل منا بدوره . ويستمر فى هذه

العملية ، إلى أن يهز الشارب القدح ، إشارة إلى الاكتفاء . وجرت العادة ألا يتناول المرء أكثر من ثلاثة أقداح .

وفى خلال فترة شرب القهوة ، كانت الجمال تعد للرحلة . وكان على (سلطان) أن يحضر إلى جملى الذى اعتدت ركوبه . وكان جملا أصيلا ، مشهوراً ، قد جلب من عمان . وهناك فارق كبير بين الإبل فى السودان ، وأمثالها فى الصحراء العربية . فالأخيرة هزيلة ، تبدو وكأنها أصغر حجماً ، وأعجف عوداً ، وقد برر (سلطان)هذا بعدم نزول المطر منذ ثلاث سنوات مما عرض الحيوانات جميعاً للجوع والهزال .

وهناك ملاحظة أخرى ، جديرة بالذكر ، فالأهالى فى السودان لايستخدمون النوق فى الركوب ، بل يحتفظون بها ، لحلب لبنها ، أما فى الصحراء فقد كان كل مرافقى العرب يمتطون ظهور النوق . كما علمت أن (آل كثير) يذبحون الذكور عند ولادتها . فهم يعتقدون أن ذكور الابل لاجدوى لها إلا فى نقل البضائع . ومادامت لاتوجد تجارة تنقل عبر هذه الصحراء ، فإن وجود ذكور الابل غير مرغوب فيه ، وهم لا يريدون اطعام حيوان لا نفع فيه.

وكانت عمليه وضع الأحمال على النوق عملية صاخبة . فمن عادة النوق الهدير وأحداث الجلبة إذا ما اقترب المرء منها . وقد سألت « سلطان » كيف يتصرفون عند الهجوم على أعدائهم . وهو عمل يتطلب الهدوء : فأجاب بأنهم يكممون أفواهها . .

وأحضر سلطان الناقة المسماة « أم بروش » إلى المكان الذى كنت أنام فيه ، وهو يقودها من رسنها . ثم أخذ يجذب الرسن إلى أسفل قائلا :

« خر . خر » ، حتى سقطت على ركبتيها ، ثم مالت إلى الوراء ، وبعد أن ركزت رجليها الخلفيتين تحتها ، رقدت على الأماميتين ، ثم زحزحت ركبتيها إلى الأمام حتى استقرت في راحة على الأرض . وعندئذ قام « سلطان » بتقييد إحدى رجليها الأماميتين مع الرسن، كي يمنعها من النهوض أثناء وضع الأحمال على ظهرها . .

لم يكن ما فعله « سلطان » ضرورياً في أغلب الحالات ، فالناقة مدربة من صغرها على هذه العملية ، إلا أنني لاحظت أن أحد الأعراب كان يلقى عنتا من ناقة صغيرة يحاول وضع الأحمال على ظهرها . لقد نهضت هذه الناقة من رقدتها ، رغم تقييد ركبتيها ، وأخذت تتحرك في عصبية ظاهرة . بين الأحمال التي كان يريد وضعها على ظهرها. ثم زاد هديرها ، وبدأت تلفظ الحشيش الأخضر ، الذي لم يكمل علكه بعد ، على ردائه ، مما جعله ينهرها في غضب متمنياً لها الضياع والموت . وبدا لي وكأنها ستقضم رأسه في أية لحظة . والواقع أن أناث الجمال لطيفة ، هادئة بصفة عامة : ولا تحاول إيذاء أصحابها . أما الذكور فانها أشد خطورة من الإناث ، فهي غالبا ما تعض وخاصة عندما تهتاج ، بل أنها كثيراً ما تكون سبباًفي إصابة قائديها باصابات بالغة. وأذكر أنني وأنا بالسودان ، قد عالجت رجلا من عضة جمل في ذراعه، حطمت عظام الذراع تحطيما تاما . .

ومن عادات بدو الجنوب الركوب على السروج العثمانية الصغيرة ، لا السروج المزدوجة التي يركب عليها العرب في شمال شبه الجزيرة ، تلك السروج التي اعتدت الركوب عليها . .

وكانت جيوب سرجي مليئة بالدراهم والذخيرة الاضافية . وكذلك

خزانة الأدوية الصغيرة بينما كانت سروج الابل الأخرى تحمل المؤن من أرز وطحين . .

وبدأت الرحلة ؛ وسرنا على الاقدام قرابة الساعتين . وما أن وصلنا السهول ذات العشب حتى تركنا جمالنا ترعى ما تجد من الحشائش . وسرنا نحن من خلفها نحرسها ببنادقنا التى كنا نمسك بفوهاتها وهى موضوعة على أكتافنا . . وهذه هى طريقة البدو فى الامساك بالبنادق . وقد أزعجتنى هذه الطريقة أول الامر ، إذ كانت جميع البنادق محشوة بيد أننى تعودتها بعد ذلك . وما أن اشتدت حرارة الشمس ، حتى ركبنا . والبدوى لا يزعج نفسه كثيرا بإناخة الجمل حتى يركع فيركب . بل إنه يكتفى بحناء رأس الجمل ثم يضع رجلا على رقبته ثم يقفز على ظهره . ولقد ألحوا على أن أنيخ جملى كى أركبه . وكانت هذه لفتة طيبة منهم . ولـكننى أردت أن يعاملونى كأى فرد منهم . ومن عادة البدوى عندما يبغى ركوب ناقة رابضة ، أن يقف وراء ذيلها ، ثم ينحنى إلى الامام ويمسك بالوتد الخشبى الموجود بالسرج ، بيده اليسرى ، بينما يضع ركبته اليسرى على السرج ، وعند ما تشعر الناقة بثقله تنهض مسرعة . . .

أذكر أننى عندما ركبت الجمل ، أول مرة فى السودان ، تألمت أشد الالم ، حتى لم يعد بإمكانى التحرك فى اليوم التالى . ثم اعتدت الركوب بعد ذلك فلم أعد أحس تعباً ولانصباً . ولـكننى خشيت أن يعاودنى التعب فى هذه الرحلة بعد أن مضى على قرابة السنوات السبع دون أن أركب جملا ، ولا شك أن ذلك أمر أخجل له بعد ادعائى أننى فارس مغوار . .

إن الجمل الجيد يسير بسرعة تتراوح بين خمسة وستة أميال فى الساعة . وهذا المعدل يريح الراكب . والركوب البطىء يرهق ويتعب ظهر الراكب .

ومن عادة البدو أنهم لا يعدون بإبلهم أبداً ما داموا فى رحلة ، لأن الابل لا تأكل إلا عند ما تجد ما تأكله ، وهذا نادر جدا . وكنت قد تعلمت من رحلاتى فى « بير النطرون » و «تيبستى » ألا أعدو بالجمل إلى أكثر من معدل سيره العادى عند السفر فى الصحراء . وأدركت بسرعة مقدار تقدير البدو لجمالهم ، فقد كانوا على استعداد دائم لمقاساة المتاعب فى سبيل راحتها . وهذا ما اكتشفته مراراً أثناء مرافقتى لهم . .

ما كنت أعتقد أن باستطاعتنا أن نقطع مسافات بعيدة كهذه التى قطعناها على معدل سرعتنا . وخاصة عندما كنت أمشى وأحس بكل خطوة أخطوها.

كنا مسوقين إلى السير إلى الأمام ، تحكم حركاتنا رغبة غامضة . وقلما كنا نتناقش بل كان الأمر لا يعدو أن يكون وقوفا فى مكان ذى حشائش ، للراحة والرعى ، أو سيراً فى سبيل الوصول إلى الهدف . وأحياناً كنا نبدأ السير فى الصباح ، والأمل فى قطع مسافة كبيرة نصب أعيننا . ثم لا نلبث أن نصل ، دون توقع ، إلى مرعى خصيب بعد بدء سيرنا بقليل ، فنتوقف بقية النهار . وأحياناً أخرى ، كنا نعتزم التوقف بعد فترة ما ، فى مكان ما ، ولكننا عند ما نصل ، ولا نجـــد مرعى ، كنا نستأنف السير دون توقف إلى أن يهاجمنا الليل . وكنا إذا ما توقفنا فى منتصف النهار ، تركنا الإبل ترعى . . .

وفى هذه الأثناء ، كنا ننتهز الفرصة ، كى نخبز بعض الأقراص ، أو نطبخ حساء : وفى كثير من الأحايين ، كنا نأكل التمر ثم نشرب القهوة التى يتوق إلى شربها رفاقى العرب وكأنها الدواء الشافى . كان بعضهم يدخن ولعل هذا هو اللهو الوحيد الذى يمارسه المرء فى الصحراء ، كانوا يتقاسمون « الغليون » ويحتفظون بالطباق فى أكياس جلدية صغيرة . ومن هذا الطباق

يملأ الغليون الصغير ثم يشعل بواسطة قطعة من حجر الصوان وأخرى من الفولاذ ، ويأخذ الواحد منهم « نفساً » أو إثنين ثم يعطى الغليون لجاره وهكذا . . .

كانت مخيماتنا لصق بعضهـــا البعض ، وعلى الرغم من وجود مساحات لا نهاية لها من حولنا ، فقد كنا نحس ضيقاً داخل الخيام ، التى كانت لا تكاد تسمح لساكنها بالتحرك فى داخلها . . .

وعندما بدأنا الرحلة ، قسمنا أنفسنا إلى جماعات ، كل منها يتألف من خمسة أو ستة من الرجال ، يحملون طعامهم الخاص. وكان من رفقائى الطمطائم الشيخ، وسلطان ، ثم ثلاثة آخرون . كان أحدهم يسمى « مبخوت » . وهو رجل ضئيل الجسم ، فى متوسط العمر ، مهذب ، ذو روح تميل إلى المرح. ولكن قلما تسمعه متحدثاً . وهذا أمر شاذ بالنسبة للأعراب المعروفين بحب الكلام . والرجل الخامس كان إسمه « مسلم » وهو الذى وصفه الوالى بالمهارة فى الصيد . كان بخيلا إذا ماقيس بغيره من العرب . ولكنه كان سريع البديهة مخلصاً فى عمله ؛ على دراية بالعالم الخارجى . وقد تطوع «مسلم» هذا بأن يكون طاهينا فى الرحلة . كان يطهو لنا الأرز . إذا ما تيسر لنا الماء ، ويصنع لنا أقراص الخبز لوجبة المساء . وطريقة عمل الخبز طريفة . فهو يفرغ الدقيق من أكياس الماعز الجلدية ، التى حملنا فيها مؤونتنا ، ثم يرش الماء على الدقيق ويضيف بعض الملح ثم يخلط الجميع حتى تصبح عجينة لها قوام. ويقسم هذه العجينة ستة أقسام متساوية الحجم . . وبعد ذلك يعمد إلى ترقيق كل واحد من هذه الأقسام بيديه حتى تتحول إلى دائرة سمكها حوالى نصف البوصة . ثم يضعها على قطعة من قماش بينما يشعل بدوى آخر النار . ويبسط « مسلم » بضع جمرات يجعل منها موقداً ، ثم يضع قطع العجين عليه . ويقلب الرغيف . ثم يحفر حفرة فى الرمل تحت الجمرات . ويضع الرغيف فى الحفرة ويغطيه

بالرمل الملتهب والرماد . وكنت أجلس لمشاهدة الفقاعات وهى تخرج من ثنايا الرمل والرماد وكنا إذا استشعرنا الجوع يأخذ كل منا رغيفاً . ونجلس فى دائرة . ثم نغمس هذا الخبز فى كأس صغيرة بها زبد سائل أو حساء . وأحيانا . كان « مسلم » يصيد أحد الغزلان أو الوعول . وفى هذه الحالة نحصل على أكلة دسمة لذيذة . وكنا نجلس بعد الأكل . حول النار نتحادث . والبدو يرفعون أصواتهم عند الكلام مهما قصرت المسافة التى يتحدثون منها إلى بعضهم البعض . وهكذا يستطيع أى فرد منهم أن يسمع ما يقوله الآخر لغيره . كما يستطيع أن يشترك فى الحديث الدائر حول نار أخرى ، متى رغب فى ذلك . . .

واعتدت أن أفترش بساطا من جلد الماعز عقب تناولى طعام الغداء ، وأن أضع خنجرى وحزام ذخيرتى تحت الوسادة ثم أستلقى تحت ثلاثة أغطية وإلى جوارى بندقيتى . وكنت شديد الحرص على التصرف بنفس الطريقة التى يتصرف بها الأعراب حتى لا أبدو غريباً على مجتمعهم . اعتدت الجلوس على الأرض ، رغم ما فى ذلك من إرهاق لعضلاتى التى لم تعتد هذا الوضع ، وكم كنت أسر عند ما يجن الليل لعلمى بأن الوقت قد حان كى أتمدد وأرتاح . ومشيت حافى القدمين ، كما يفعلون ، وقاسيت من ذلك أول الأمر إلى أن اخشوشنت قدماى واعتادتا الحفاء . .

ولا يخطر ببال البدو أن هناك عادات تغاير تلك التى اعتادوها . وأذكر أنهم يوم أن حضروا إلى فى معسكر القوات الجوية الملكية فى « سلالة » رأو رجلا يتبول وهو واقف . وسألونى فى اليوم التالى ما إذا كان ذلك الرجل مصاباً بمرض يمنعه من القرفصة للتبول . . .

أما أنا فقد اعتدت أن أفعل مثلهم ؛ جاعلا من عباءتى شبه خيمة تسترنى والبدوى حريص على ألا يتبول أو يتغوط قرب ممر . ولأن البدو مسلمون ،

فهم ميالون كثيراً إلى الاحتشام ستر العورة . وعند محاولتي تقليدهم فى تغطية ما حول وسطى ، وجدت صعوبة تامة ، وخاصة عند الجلوس على الأرض . وقد اعتاد البدو أن يقولوا للشخص الذى يظهر عضوه فى جلسته ، كلمة (أنفك) ويقصدون بها (أستر عورتك) . وأذكر أن هذه الكلمه قيلت لى ، قبل أن أتعلم الحرص عند الجلوس ، ولكننى لم أفقه معناها ، فمسحت أنفى ، معتقد أن هناك شيئاً على مقدمته فقد كان الطقس قارس البرد .

كانت الحياة ، بادىء الأمر ، مع هؤلاء البدو أمراً شاقا على نفسى . فقد قاسيت كثيراً من الأرهاق الذهنى أكثر مما قاسيت من الأرهاق الجسدى وذلك خلال معاشرتى لهم . لم أستطع أن أكيف نفسى على طرائق حياتهم . فمثلا ، كنت ميالا إلى الوحدة والانفراد بنفسى وهذا ما لم أستطعه . فما كنت مستطيعاً ، حتى الكلام مع واحد منهم على انفراد . بل أنهم كانوا يحاولون الاشتراك فى الحديث وألا ارتابوا . لقد بلغ الأمر حداً جعل كل كلمة تفوهت بها تصل إلى آذانهم ، وكل حركة قمت بها كانت تحت مراقبتهم .

ومررنا بمنحدرات (القرة) الشمالية . فوجدنا بعض المراعى نتيجة لهطول الأمطار غزيرة منذ ثلاثة أشهر . وأخذ رفاقى يبطئون مسيرهم . أن البدو ليكرهون ترك المرعى والاندفاع إلى البرية القفر . وزاد تلكؤهم وفى كل مرة كانوا يقسمون أنها الأخيرة . ولكن أغراء المراعى كان شديداً . وشككت فى أن يكون التباطؤ متعمداً كى تطول الرحلة ، فيزداد الآجر .

ووجود هذه المراعى ، دفع بالبدو إلى غشيانها من أماكن بعيدة ، كى يرعوا أبلهم . وكان هؤلاء البـــدو ينزلون ضيوفا على رفاقى الذين كانوا

يستقبلونهم فى هدوء واطمئنان كما لو كان ما يفعلون أمراً طبيعياً . ولا عجب فالبدوى مضياف كريم .

ومضت أشهر ثلاثه قبل أن أعود إلى (سلالة) . أشهر مضنية من السفر الدائم ، تعلمت فيها كيف أعجب برفاقى من البدو ، وكيف أقدر مهارتهم . لقد أدركت أن التآلف والتواد مع هؤلاء أيسر بكثير من التآلف والتواد مع سكان الحضر من المثقفين والذين هجروا عاداتهم وتقاليدهم إلى تقليد عادتنا وتقاليدنا .

لقد بدأت أرى الصحراء بعين البدوى ، وتعلمت كيف احكم على الناس بنفس طريقة البدو فى الحكم . لقد جئت هنا ، لا باحثاً عن الجراد ، بل عن شيء أهم من الجراد . لقد وجدت الحياة التى طالما بحثت عنها .

ولعل فى ذكر هذين الحادثين البسيطين ما يوضح جانباً هاما من جوانب النفس البدوية وما انطبعت عليه من حب للأيثار ، وحفاظ على الأخاء ، يضاف إلى ذلك ماحبتهم الطبيعة به من مواهب تكاد تكون خارقة .

الحادث الأول وقع يوم أن توجهت إلىصحراء (غنيم) مع أثنى عشر رجلا من الأعراب ، بينما أكمل الباقون مسيرهم إلى (مقشن) . وكانذلك بعد ثمانية أيام من تركنا لبئر (شيصور) . وقد أصبحنا على مقربة من بئر (حلو) . فتوقفنا لنطعم الأبل ونستريح . واقترحت أن نتوجه إلى البئر إذ كنت أشكو الظمأ . وأصبحت الطمطائم وسلطان ومسلم . ووعد الباقون باللحاق بنا بعد أشباع الأبل . ووصلنا البئر ، وسقينا أبلنا ، وأطلقناها ترعى ثم جلسنا قرب البئر . ولم يشرب أحد منا بعد . وحرصت ألا أظهر بمظهر المتهافت المتعجل . ولكن الظمأ دفعنى إلى اقتراح الشرب . واعطانى (سلطان)

قدحا من الماء . ووجدت من اللياقة أن أقدمها للطمطائم الشيخ . ولكنه رفض وطلب منى أن أشرب ، أما هو فإنه لن يشرب حتى يصل الآخرون . وأضاف قائلا إنه من غير اللائق أن يشرب دون رفاقه فى السفر . فالبدوى لا يأكل أو يشرب فى غياب صاحبه ورفيقه . وقد وصل الآخرون، ولكن بعد قرابة خمس ساعات . ورغم أنى فقدت صبرى ، إلا أننى أعترف بأن مثل هذه الزمالة يندر وجودها فى العالم .

أما الحادث الثانى فقد وقع بعد الأول بعدة أيام . وكنا قد مررنا ببعض مواقع الآثار . وما كنت واثقاً أنها مواقع أقدام إبل فقد طمسها الرياح وذهبت بآثارها . واستدار (سلطان) إلى رجل منهم اشتهر بتقصى الآثار ، وسأله لمن تلك الآثار . وسار الرجل مسافة قصيرة ثم نزل عن جمله ، وأخذ يتطلع إلى الآثار الباقية على الأرض الصلدة . وبعد فترة فحص وتقص قال إنها من (العوامر) . لقد مر من هنا ستة منهم . وقد حدث أنهم هاجموا (الجنوبة) على الساحل الجنوبى . وأخذوا ثلاثة من جمالهم . وأتوا إلى هنا من (سحمة) ، وشربوا ماء فى (مقشن) . وكان مرورهم من هنا منذ عشرة أيام .

ومما يجدر ذكره أننا ، فى ذلك الوقت ، لم نكن قد رأينا أعرابا منذ سبعة عشر يوما ، ولم نرهم بعد ذلك بسبعة وعشرين يوما . وعند عودتنا ، التقينا ببعض الأعراب من (بيت كثير) قرب جبل (القرة) . وما أن تبادلنا الأخبار معهم ، حتى علمنا منهم أن ستة من العوامر هاجموا (جنوبة) وقتلوا ثلاثة من رجالها وسلبوا ثلاثة من ابلها . والشىء الوحيد الذى لم نكن عرفناه قبلا هو أن أحد الاشخاص قد قتل .

إن كل بدوى يعرف الآثار الخاصة بجمله . ويستطيع بعض البدو أن

يتعرفوا على آثار كل جمل رأوه تقريباً : فمن نظرة وحيدة إلى عمق آثار قدم الجمل يعرفون إن كان طليقاً أو مركوباً أو محمــلا . من استقصاء الآثار يدركون الجهة التي أتى منها الجمل . فلجمال الصحراء مثلا كعوب ناعمة في أقدامها يدل عليها جلد مسلوخ بال . بينما الجمال التي تأتي من سهول ذات حصى تكون أقدامها مصقولة ناعمة . كما أن البدو يستطيعون معرفة القبيلة التي ينتمي اليها الجمل . فلكل قبيلة نوع من الجمال يختلف عن نوع غيرها . وهم يستنتجون مكان رعي الجمل من روثه ، ويعرفون متى شرب آخر مرة وأين. وهم على علم تام بمجريات الأمور في الصحراء . فيعرفون علاقات القبائل بعضها ببعض وما يقوم بينها من تحالف أو عداء . ويستطيعون عن طريق الحدس والتخمين معرفة موعد هجوم قبيلة على أخرى . البدوي وسيلة إخبارية ناجحة إذا ما التقى بغــيره ، بل إنه أحيانا يسافر خارج موطنه للحصول على أخبار جديدة .

وتبينت من رحلتي هذه أن (مقشن) لا يمكن أن تكون مركزاً لانتشار وتوالد الجراد الصحراوي بعد أن عرفت أن مياه السيول لم تصل إلى هـذه القرية عن خمس وعشرين سنة .

وقررت الرحيل غرباً إلى (حضرموت) ، على حافة الصحراء الجنوبية، لأستطلع إمكانية وصول السيل إلى هذه الصحراء من جبال (مهرة) العالية الواقعة على الساحل . ولم يحدث أن سافر أوربي قبلي إلى البلاد الواقعة بين (حضرموت) و (ظفار) .

كنت قد تقابلت في طريقي إلى (مقشن) بشيخ من (بني رشيد) يدعى (مسلم بن الكمام) . وقد شعرت نحو هذا الرجل بنوع من الألفـة بمجرد

رؤيتى له . طلبت منه أن يجمعنى مع أفراد قبيلته فى (سلالة) فى شهر يناير كى يرافقنى إلى (حضرموت) ، وعندما وصلت (سلالة) وجدت(مسلم) هذا مع ثلاثين من بنى قبيلته ينتظروننى . وقررت أن أستبقى (سلطان) ، (مسلم بن طفل) معى من أفراد (بيت كثير) . كما وافقت على أن أدفع لخمسة عشر شخصاً من(بنى رشيد). ولكن ابن الكمام صمم على أن يكون عدد الرجال ثلاثين رجلا ، على أن يتقاضوا أجر الخمسة عشر وأوضح السبب فى هذا بأن البلاد التى سنمر فيها طالما هوجمت من جانب بعض القبائل اليمنية . وأكد أن أكثر من مائتين من قبيلة (بنى دهم) يغزون فى ذلك الوقت قبائل(المناهل) على المدرج الشرقى لحضرموت .

كان بنو رشيد أقارب وحلفاء (بيت كثير) ويرجع نسب الاثنين إلى (آل كثير) وبدو (بيت رشيد) يرتدون الأردية العربية الطويلة ، والملاحف المصبوغة باللون الخمرى الفاتح ، المستخرج من بعض أعشاب الصحراء . وأجسامهم ضئيلة إلا أنهم يتميزون باليقظة والوعى وقدرة الاحتمال والحيوية . ولاغرو فقد نشأوا فى بيئة من أصفى البيئات وأنقاها . وعاشوا فى جو لايحيا فيه إلا كل قوى ، متين البنيان . لقد بدأ أفراد (بيت كثير) إلى جانبهم وكأنهم عرب زائفون ، تنقصهم اللمسة الأخيرة من حياة الصحراء .

وقبيلتا (بنى رشيد) و(العوامر) تعيشان جنوبى شبه الجزيرة : وقد تأقلمتا بالحياة فى الصحراء . بل إن بعض أفراد القبيلتين عاشوا فى أواسط الصحراء فى المكان الوحيد من الربع الخالى الذى توجد به الآبار ، بينما ظل غيرهم يتنقل فى الصحراء . أما قبائل (المناهل) فإنها تعيش فى أقصى الغرب . وخلف (العوامر) كانت تقطن قبائل (صيعر) ألد أعداء (بنى رشيد)

وقربهم يعيش آل (المهرة) وهم منقسمون فيما بينهم إلى بطون وأفخاذ ويقيمون فى الجبال والسهل على طول الساحل . ويأتى بعدهم آل (هموم) وذلك إلى الشمال من (المكلا) .

ويلاحظ أن القبائل البدوية فى جنوبى شبه الجزيرة العربية قليلة العدد إذا ما قورنت بالقبائل فى الشمال والوسط . حيث تشمل خيام قبيلة واحدة عدة آلاف بدوى ، فعندما زرت قبائل (شمر) فى سورية مثلا ، رأيت شعباً كاملا يتحرك فى الصحراء بقطعانه ، وزرت مضارب (الروالة) الصيفى فوجدتها مدينة تتألف من مخيمات سوداء . وفى شمال شبه الجزيرة تمتد الصحراء إلى داخل الأراضى الزراعية ، مما يعمل على إيجاد تحول تدريجى من حياة البداوة إلى حياة الزراعة والرعى .

ويحدث ، عندما يزور البدو أحدى المدن الواقعة على مشارف الصحراء ، أن يروا فى أسواقها رجالا مختلفى العناصر والثقافة والدين . ولكنهم قلما يحتكون بالمدن احتكاكا شديداً ولا يتصلون بحياة ساكنى هذه المدن إلا عرضاً .

كنت أتمنى أن أوفق فى اجتياز الربع الخالى . وكنت أرجو أن يتيسر لى قطع هذا الجزء من الصحراء مع (آل رشيد) بعد أن وصلنا إلى حضرموت ولكننى ما أن فاتحتهم فى الأمر حتى أقنعونى بعدم نجاح الفكرة لقسوة الحر فى ذلك الوقت . فوافقت مصمما على العودة اليه يوما . واعتبرت رحلة هذا العام رحلة تجريبية للرحلات اللاحقة . ووجدت فى (آل رشيد) ضالتى للمغامرات المقبلة .

التقيت فى هذه الرحلة بشاب يدعى (سالم بن قبينة) . وهذا الفتى يحمل

اسم أمه مع خلاف العادة . وقد نصحني شيوخ (آل رشيد) بأن أضم الفتى إلى عداد مرافقي . وطلبت من (سالم) أن يعثر لنفسه على جمل وبندقية ، فابتسم وأجاب بأنه سيجدهما، وفعلا وجدهما ، كان فى السادسة عشرة من عمره على وجه التقريب . وكانت خطاه واسعة متمايلة كخطى الابل . وهذا شاذ بين البدو الذين يسيرون ، عادة ، مستقيمي الجذع وبخطى قصيرة . وكان فقيراً معدما ، تركت مصاعب الحياة أثرها على بنيته فبدأ هزيلا ضامراً شاحب الوجه . وكان شعره طويلا إلى حد كبير ، يتطاير دائماً أمام عينيه وخاصة عندما يكون قائماً بعملية طهو الطعام . وجبهة (سالم) كانت ضيقة ، بينما كانت عيناه واسعتان ، وأنفه مستقيما ، وعظمتا وجنتيه بارزتين ، وفمه كبيراً ، وشفته العليا واسعة . أما ذقنه فكان ذا شكل دقيق ومدبب نوعاً تعلوه ندبة طويلة ، من أثر كيه وهو صغير كي يشفى من مرض . وأسنانه كانت بيضاء جداً ، تظهر دائما فقد كان لا يفتأ يتكلم أو يضحك . وقد مات أبوه من سنتين ، فكان عليه أن يعول أمه وأخاه الصغير وأخته المريضة . حقاً . لقد التقيت به فى لحظه حاسمة من حياته ، رغم أننى لم أعرف كل هذا إلا بعد أسبوع من لقائنا.

كنا نسير خلف الابل فى هدأة الصبح الباكر . وكنت أنا وابن قبينة على مبعدة من الآخرين . وكان الفتى يمشي وجسمه مائل ناحيتي ، ورداء وسطه الأحمر مشدود حول فخذيه الضيقتين . وكانت بندقيته التى يمسكها من فوهتها على كتفه صدئة عتيقة حتى انى كنت أشك فى صلاحيتها للانطلاق والإصابة . وأفهمني . (سالم) أنه ذهب إلى الساحل منذ شهر ليحضر حملا من السردين . وفى طريق العودة سقط جمله ومات . وقص علي (سالم) ماحدث له قائلا (لقد أخذت أبكي وأنا جالس في الظلام إلى

جوار جثة جملي الأغبر العجوز . وفى تلك الليلة بدأ الموت قريبا منى رمن أسرتى الى حد كبير . لقد جرت العادة بأن يجتمع الأعراب حول الآبار ، حيث تأكل الأبل العشب فى المراعى ، ثم تنتقل المياه على ظهور الأبل للانتفاع بها حيث لاتوجد مياه . فكيف يتسنى لمثل « سالم » أن يتنقل عبر الصحراء دون جمل . وابتسم « سالم » وهو يقول لى « لقد أرسالك الله الآن، وسأحصل على كل ما أريد « لقد أحببت »« ابن قبينة »، وخفف عنى وجوده ما كنت أعيش فيه من ضيق ، وسرنى مرحة وحسن فهمه لما أريد . . .

حدث بعد هـــذا أن جاء رجل عجوز الى مخيمنا . وكان برجله عرج ، وتبين عليه أمارات البؤس . فلباسه خلق ، عفى عليه الزمن ، وهو يحمل بندقية عتيقة تشبه تلك التى يملكها بن قبينة ،وفى حزامه علبتان للخرطوش وست علب فارغة،وخنجر قد تحطم غمده . . .

وما أن رآه آل رشيد حتى تصايحوا قائلين « أهلابك وسهلا » أهلا « بخيت » . لك العمر الطويل ياعماه ، أهلا بك مائة مرة » . .

دهشت من حرارة استقبالهم لهذا الشيخ ، الذى جلس على الحصير وأكل من تمرهم . بينما ركضوا ليشعلوا النيران ويصنعوا القهوة . كانت عيناه محمرتان وأنفه طويلا ، تتدلى من شعره خصلات على صدغه . .

وبدا لى الرجل كمتسول عجوز . وأفهمنى « ابن قبينة » أن الرجل من آل « عمانى » وأنه ذو شهرة . ولما سألته عن سر شهرته ، أجاب إنه يشتهر بالجود . . فقلت إننى لا اعتقد أنه يملك شيئا ليجود به . فقال « ابن قبينة » إنه لم يعد يملك الآن شيئا . فليس له جمل ، أو زوجة .وقدكان له ولد حسن الصورة ولكن « آل دهم » قتلوه منذ سنتين وسألت « ابن قبينة وأين ذهبت

جماله ؟ هل سلبها اللصوص أو أماتها المرض فأله‌جاب . . كلا . . فقد كان كرمه سبب فقره . فما أتاه ضيف إلا ونحر له جملا . أى والله ، إنه لكريم . .

ويممنا بعد ذلك شطر الغرب ، واستقينا من آبار « السناو » و « مغير » ، و « ثمود » العميقة . وكانت الصحراء تبدو خالية موحشة . وعن بعد كنا نرى بعض الرعيان يسوقون قطعاتهم عبر السهل ، وكان بعض « آل رشيد » ينزلون عن الجمال ويذرون الرمال فى الرياح دلالة على حسن النية — كما يعتقدون — وبعد ذلك يتجهون نحو الرعيان يسألونهم الأخبار . وكان لصوص « الدهم » مادة هذه الأنباء . وكان هؤلاء يتألفون من عدة فروع مسقط رأسها بلاد اليمن وقد قدر عددهم بنحو الثلاثمائة رجل او نحو ذلك . وهم مسلحون تماما . وانبأتنا نساء « المناهل » أن حوالى أربعين رجلا منهم ذبحوا ثمانى عنزات لهن قبل ثلاثة أيام ليأكلوها . ووصفن لنا هؤلاء اللصوص . .

فى إحدى الأمسيات ، وبعد أن استقينا فى « الخليلة » أقمنا خيامنا على مقربة من بعض أشجار السنط . وتركنا الأبل ترعى فى حراسة ثلاثة من رجالنا . واصطف « آل رشيد » للصلاة ورحت أرقبهم وأنا أتأمل فى طقوس دينهم التى ظلت كما هى منذ رسالة نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم . وفجأة صاح أحد الرجال قائلا « هناك رجال خلف الصخور » فترك الجميع صلاتهم وأخذوا يتصايحون « الجمال الجمال ، اجمعوا الجمال » وركض بعضهم ليساعدوا الرعيان الذين انتبهوا على الصيحة فأخذوا يجمعون الجمال المنتشرة . واستعد « ابن قبينة » للذهاب نحوهم ، ولكننى طلبت أليه البقاء معى . وأمسكنا ببنادقنا ، وتمددنا خلف الأحمال المبعثرة هنا وهناك ، وبرز

عشرون فارسا من وراء الصخور واندفعوا نحو إبلنا . وأطلقنا عليهم النيران وقال لى «ابن الكمام» الذى كان بجوارى« أطلق النار لأعرف من يكونون » فأطلقت خمس طلقات سريعة أمام أبلهم التى كانت تمر بسرعة من أمامنا . وكان كل واحد يطلق النار . وقد حاول « ابن قبينة » أن يجرب بندقيته فلم تنفجر طلقاته .وكنت أرى الحنق باديا على وجهه . .

واختبأ اللصوص خلف تلة ، فأخذنا جمالنا . ولم يستطع أحد منا أن يعرف هوية هؤلاء اللصوص . إلا أن الجميع أجمعوا على أنهم ليسوا من « الدهم » أو « الصيعر » وقد تأكدوا من ذلك من سروج إبلهم . وقدر بعضهم أنهم من «العوامر» أو «المناهل» ولكنهم ليسوا من «آل مهرة» لتباين ثيابهم عن ثياب هؤلاء . وقال أحد رجال « المناهل» ممن كانوا يعملون معنا أنه سيتقدم ليستوضح ونهض وسار ببطء ، نحو التلة . ونهض منهم رجل لمواجهته . وما أن تقابلا ، حتى تصايحا وتقدم كل منهما لعناق الآخر . كان المهاجمون من رجال «المناهل» ولم تمض فترة حتى انضموا الينا . وعلمنا منهم أنهم يطاردون عشائر « الدهم » وأنهم عندما رأوا أبلنا أخطأونا ، وتوهموا أننا من لصوص « الدهم » . ولكنهم أدركوا خطأهم عندما سمعونا ننادى حرس الأبل واحتفلنا بالمناهل وأنزلناهم ضيوفا علينا . .

اجتمع « آل رشيد » حول النيران وكلهم شوق الى سماع أنباء الغزو . وذهبت لأضطجع ، ولكننى لم أستطع النوم ، فقد أقض مضجعى صوت هؤلاء البدو ، على بعد ياردات من مكان نومى . ،

كانوا يضعون خطـــة لغزو « الدهم » كى يستعيدوا أمتعتهم المسلوبة ، وكان « آل رشيد » و« المناهل » حلفاء . وقد قاسى الفريقان طويلا من غارات « الدهم » . وكان « ابن الكمام » قد شرح لى من قبل صعوبة

مقاومة هؤلاء اللصوص ..

ووصلنا الى وادى حضرموت بعد أسبوع ، ثم اتجهنا الى « طارم » . وكم كانت نفسى تهفو الى رؤية هـــذا الوادى الشهير . لقد استقبلنا هناك بحفاوة بالغة ، وعوملنا بكرم . فجلسنا على الأرائك الفخمـــة فى غرف الاستقبال الرحبة ، وأكلنا طعاما حسن الطهو ، وشربنا ماء لم تلوثه جلود الماعز . أما رفاقى من البدو فقد كانوا قلقين خوفا من أن تأكل إبلهم من أعشاب « الدحريج » فتنفق. وقد أقنعتهم بالبقاء عدة أيام أخر ، إذ كنت أشعر بوحشة لمجرد التفكير فى مفارقتهم .

الفصل الرابع

استعدادات سرية فى « سلالة »

ما كنت أود أن أعود الى انجلترا ، فقررت السفر الى « جدة » حيث أزور وحـــدة مكافحة الجراد التى كان مقرها الرئيسى خارج البلدة ، ومنها أسافر الى جبال الحجاز ، كى أزور تلك الجهة التى مازالت مجهولة من شبه الجزيرة العربية . .

ذهبت الى هناك ، وقضيت قرابة الأشهر الثلاثة متجولا فى أنحائها ، مستخدما الجمل تارة والحمار تارة أخرى . وكان يرافقنى فتى « شارفى » من وادى « الحصابة » . تجولت عبر « تهامة » وهو سهل ساحلى بين البحر الأحمر والجبال ، وقابلتنا القرى ، التى لاتفترق بيوتها عن الأكواخ المصنوعة من الطين فى أفريقيه . والأهلون فى « تهامة » على جانب غير عادى من الجمال . يلبسون أردية تستر عورتهم ؛ ويعطرون شعرهم المتطاير ببعض أعشاب بلادهم . وعندما يختتن أطفالهم ، يقيمون حفلات صاخبة فى ضوء القمر : .

قضيت فترة من الوقت مع « بنى هلال » أحفاد القبيلة العربية المعروفة فى الأساطير . وتعرفت الى القحطانيين شبة العراة ، وهم ينتمون الى ذلك

الجد الذى كان سيد العنصر العربى فى العصور الأولى، وهم يعيشون اليوم فى ممرات وادى « بيش » وزرت بلادا ومدنا مختلفة كالطائف ، وأبها ، وصبيا ، وجيزان . وتساقنا ممرات منحدرة ، كانت القردة تصرح فى وجوهنا من بين صخورها . واسترحنا الى جانب الينابيع الباردة فى غابات العرعر والزيتون . .

فى بعض الأحايين ، كنا نقضى الليل عند أحد الأمراء فى قصره المنيف وأحيانا أخرى كنا نقضيه فى كوخ من الطين . ولكننا كنا فى هذا أو ذاك نقابل بحفاوة وكرم وحسن وفادة . نعمنا بالأكل ، ونعمنا فى النوم . ولكننى رغم هذا ، كنت دائب التفكير فى الصحراء التى تركتها ، متذكرا «ابن الكمام » و « ابن قبينة » و « سلطان » و « مسلم » .

وفى النهاية ، عدت الى لندن . وأعملت فكرى فى وسيلة لاقناع مركز البحث عن الجراد كى يبعث بى ثانية الى (الربع الخالى) . وكنت أعلم أن حلتى الأخيرة كانت باهظة التكاليف بالنسبة لموارده. فهل من الممكن إقناع دكتور «أوفاروف» بأن رحلة كهذه جديرة بالاهتمام ؟ وإذا لم يقتنع بهذا فأنى لى بالعودة؟ .

وما أن وصلت الى لنــــدن حتى اسرعت لزيارته فى متحف التاريخ الطبيعى ، وأخذت أبين على مصور يغطى أحد جدران مكتبه ، الأماكن التى طرقتها ، مؤكدا له أن السيول التى تهطل من الجبال الساحلية نادرا ماتصل الى حافة الصحراء الجنوبية. وأشار الدكتور « أوفاروف » الى جبال «عمان » وسألنى إذا كنت أعتقد أن السيول التى تنزل هناك تصل الى هذه الصحراء. وانتهزت هــــذه الفرصة فأجبته بالاعلم لى. ولكننى سأذهب لارى وأتأكـــد . غير أن الدكتور قال فى أسف إنه كان يتمنى لو استطاع ذلك .

فقد سبق له أن طلب إذنا من السلطان فرفض رفضا قاطعا . ومن العبث تجديد طلب الإذن . فاقترحت عليه أن يطلب من قنصلنا فى « مسقط » أن يحصل على إذن لى بالذهاب الى « مقشن » ثم يدع لى باقى الأمر . واستحلفته ألا يذكر « عمان » أو غيرها من المدن . ووافق الدكتور « أوفاروف » على اقتراحى . فخرجت من عنده وأنا امنى النفس بالانتصار على صحراء « الربع الخالى » وصممت أن يظل الأمر سرا ، كى لا يصل النبأ الى « مسقط » فيحال بينى وبين القيام بالرحلة . .

وكنت على علم بأن سلطان « مسقط » يدعى أن « مقشن » ، « صحراء غنيم » من أملاكه . ولكن « الربع الخالى » شمال صحراء غنيم ، فلا سلطان لأحد عليه . ونفوذ سلطان مسقط وعمان ، كان اسميا لا فعليا ، حتى على أمور عمان الداخلية ، إذ أن حكم شعب عمان الداخلى فى يد زعيم دينى يدعى « الامام » . وهو عدو سلطان « مسقط » ويكره الأجانب لدرجة كبيرة . لهذا السبب ، أصبحت موقنا أنه لن يسمح لى بالسفر الى عمان فى المرحلة الأولى من الرحلة . .

وصلت الى « سلالة » فى السادس عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩٤٦ . وعزمت على اجتياز صحراء « الربع الخالى » مبتدئا من « مقشن » الى ساحل الهدنة على أن أعود الى « سلالة » عبر مدارج الحصى الواقعة فى مؤخرة عمان . ولكننى أدركت أن لو علم الوالى بأمر خطتى هذه فسيصدر أمره يمنع البدو عن مرافقتى الى أبعد من « مقشن » . فكان على أن أعلن أننى ان أذهب الى أبعد من ذلك . مؤملا أنى عندما أصل « مقشن » أستطيع إغراء البدو باجتياز « الربع الخالى » معى . واتفقت مع الوالى على أن يصحبنى نفس العدد السابق من « بيت كثير » . .

إن بدو « بيت كثير » يعيشون فى الجبال وعلى سهول الحصى جنوب

« الربع الخالى » . وهم فرع من قبيلة تدعى « بيت مرسان » . ولهذه القبيلة حق دخول صحراء « الربع الخالى » . كان « برترام توماس » قد حاول من قبل – كما اسلفنا – اجتياز « الربع الخالى » مع « بيت كثير » . ولكنه أضطر الى العودة بعد أن قطع مسافة قصيرة . ونجح فى محاولته الثانية عندما استخدم « بيت رشيد » . لذلك انتويت الاستعانه بآل « بيت رشيد » فى محاولتى . .

وحدث ذات يوم ؛ أن كنت بالسوق أبتاع ثيابا ، فالتقيت ببدوى من « آل رشيد » يدعى « عمير » ، كان ضمن مرافقى رحلتى فى العام الماضى ، وحييت « عمير » وطلبت منه ان يجمعنى بابن الكمام وابن قبينه واثنين آخرين سميتهما له ؛ ووعدته باصطحابى له ، إذا أحضر لى من طلبت . وعلمت منه أن « ابن قبينة » فى « حبروت » على مسيرة أربعة أيام ، وأن « ابن الكمام » قد سافر الى اليمن ليعقد هدنة بين « آل رشيد » و « الدهم » . واتفقت مع « عمير » على أن يأتينى « بابن قبينة » فى « شيصور » بعد عشرة أيام . وتأكدت انى سأجد عددا كبيرا من « بيت رشيد » هناك . وهذا ما حدث فعلا . .

وبينما كنت أحادث « عميرا » أتانى أصر موالى الوالى ، يخبرنى فى خشونة أنه من المحظور على أن أحادث « غريبا ، فأجبته بأن « عميرا » ليس غريبا وأن عليه ألا يتدخل فيما لا يعنيه . .

من ميزات العرب أنهم لا يتعصبون بالتمييز فى لون البشرة . وهم يعاملون الملون كأنه أحدهم مهما كان لونه حالك السواد . وبهذه المناسبة أذكر أننى كنت فى الحجاز ؛ وفى قاعة استقبال فى بيت أمير ، ودخل عبد عجوز ، يلبس ملابس زاهية الألوان . فقام الأمير لمصافحته ، وأجلسه الى جانبه ، كان يقدم له الطعام بنفسه . .

غادرت « سلالة » بعد ظهر اليوم الخامس والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٩٤٦ ، وبصحبتي أربعة وعشرون رجلا من « بيت كثير » . أكثرهم ممن رافقوني في رحلتي السابقة . . كان على رأسهم « الطمائم » الشيخ الذي أنبأني في زهو أن امرأته أنجبت له طفلا . لقد سررت إذ رافقني في رحلتي الثانية ليزودني بنصائحه المفيدة . وكان هناك « سلطان » وقد تأكدت أن مسألة اجتيازي الصحراء موكولة اليه شخصيا ، وأنه سيكون خير عون لي على تحقيق هدفي . وهناك « مسلم » الطاهي الماهر و « مبخوت بن عريان » ، « سليم بن تركي » قريبه مع أبنه الذي تشبث بأخذه معـــه . وهو شاب في الخامسة عشرة جميل الصورة ، ذو عينين نفاذتين ، وشعره مقصوص على شكل عرف الديك . دلالة على أنه لم يختتن بعد . .

ونصبنا خيامنا قرب مكان يسمى « العين » وهو نبع على سفح جبل « القرة » . وقضينا يومنا الثاني ، نرتب أمتعتنا ونصنفها . فقد أحضرت معي ألفي كيلو جرام من الدقيق ، وخمسمائة من الأرز ، وزبدا ، وبنا ، وشايا وبلحا . آملا أن تكفينا هذه الكميات مدة ثلاثة أشهر . وصممت على أن أضيف ستة أفراد من « آل رشيد » الى جماعتنا . .

كان من الصعب علينا التحرك من مكان الى آخر . فقد سكنت الإبل الى مكانها حيث وجدت المرعى . .

وكان ضوء القمر ينير وجوه الرجال ، ويرسم الخيالات على رؤس الجمال ورقابها . وأخذ الرجال يلقون الى بأسئلتهم . . أين كنت مذ غادرتنا وماذا فعلت خلال هذة المدة ؟ أذهبت الى الحجاز ؟ أين يوجد الحجاز ؟ هل ساكنوه من البدو ؟ انهالت على الأسئلة وأجبت عليها ثم بدأ دوري في السؤل والاستفسار . أين بخيت بن كريت ؟ هل غزى « الدهم » « آل رشيد »

أسقط المطر فى « مقشن » ؟ أين ناقتى « أم بروشه » ؟ أجاب سلطان على سؤالى الأخير بأنها ماتت بعد أن وقعت بين الصخور من شهرين وكسرت ترقوتها ،

مرت الساعات سراعا ، ونهضنا الواحد تلو الآخر ، نبحث عن مكان للنوم . وتركت متاعى خلف بعض الصخور . واخترت مكان نومى على مقربة من موقع منبسط من الأرض . وقد وجدت جملا راقدا فيه ولكن المكان كان يتسع لكلينا ، ففرشت سجادتى وجلدى قربه . والطقس فى الصحراء قارس البرد ، ولهذا قاسيت الكثير منه نائما وتحت غطاء واحد ..

وكنت أرتدى قميصاً قد ربط عند الوسط بحزام خنجرى العمانى الثقيل ذى المقبض الفضى . فأصبح لدى جيب طبيعى ، بين القميص وجسمى ، وضعت فيه بوصلتى ودفترا صغيراً ، وكنت أملك غطاء للرأس يشبه الملفحة الكشميرية ابتعته من عمان ، وكوفية عربية ذات لون بنى شريتها من الحجاز . وكان معى ، كذلك ، بندقية وحزام خرطوش ، وذخيرة إضافية ، وجهاز تصوير ، وأفلام ومقياس للحرارة ، ومفكرة كبيرة وعدة كتب ، وخزانة أدوية ، وخنجر ، وثياب لابن قبينة ، وعدة جنيهات ماريا تريزا ، صكت عام ١٧٨٠ ولكنها لا تزال متداولة فى بعض أنحاء شبه الجزيرة العربية . وكانت هذه النقود موضوعة فى أكياس من الخيش ومربوطة بخيطان . وهى فى متناول رجال البدو . ولكن هؤلاء الرجال كانوا رغم فقرهم مثلا فى الأمانة وعفة النفس . لقد كانت النقود وكأنها فى مصرف . وفى خلال السنوات الخمس التى قضيتها مع البدو لم أفقد يوما قطعة واحدة من النقود أو الذخيرة ، مع أن هذه كانت أثمن وأغلى شىء عندهم ..

وارتديت ثوب النوم ، وتمددت وأخذت أستمع إلى أصوات البدو ،

التي كانت تنقطع ثم تعود ، عندما يوقظهم البرد ، فيجلسون حول النار ، بينما يغني يسمع غناء شخص من بعيـــد . .

قضينا اليوم التالي في « العين » وبعد الظهر تسلقت الجبال ، وكان معي « سلطان » و« مسلم » و « ابن تركي » وابنه . وزرنا مخيما في « القـــرة » . ووجدنا عائلة تعيش في كهف قد حفر في صخر كلسي . وجلسنا نتحدث مع أفراد العائلة . وبينما نحن كذلك ، ظهر رجل أعور مع صبيين يناهزان السادسة عشرة ، ورجل قوي البنية في أواسط العمر ، بيده سيف ودرع . وقدم لنا أحد الصبيين بعض اللبن في كأس خشبية . وقد حذرني « مسلم » من حشرة تسمى « الضفر » تسبب لسعتها ورما وترفع درجة الحرارة ـ وهذه الحشرة تنتشر في هذه الكهوف حيث تأوي الماعز . .

وأوشكت الشمس على المغيب ، وحل موعد العودة إلى المخيم ، فنهضنا . .

في اليوم التالي تسلقنا قمة « قسميم » وأقمنا مخيما على المنحدر ، وكان بعض « بيت كثير » يعيشون هنا بين « بيت قطان » و « بيت سعد » في جبال «القرة» . وكانت هناك اوجه شبه كثيرة بينهم في طرق المعيشة والمظهر الخارجي . وهذا الفرع من « بيت كثير » كانوا يتحدثون بالعربية . وسرعان ما حفل مخيمنا بهم . وابتعنا منهم الزبد والماعز بأسعار خيالية . .

وتطلعت ببصري إلى الصحراء المنبسطة . وهبت نسمة من حـــولي ، فرأيت بعين الخيال ذلك القصر المهجور في سورية الذي زاره يوما «لورنس» .

كانت هناك أسطورة عربية تقول إن أحد الأمراء بناه ليكون قصراً صحراوياً لمملكته . ويزعم العرب أن طين هذا القصر معجون بعصير مختلف الأزهار .

وطاف بخيالى منظر الدليل العربى وهو يقود « لورنس » من حجرة إلى أخرى كى يشم العبير ذا الشذى العطر وهو يقول له .. هذه رائحة الياسمين ، وهذا عطر البنفسج ، وذاك عبير الورود . ثم يقول له اخر .. « تعال ، لتنعم بأطيب عبير » عبير . ثم يقوده إلى حيث نافذة متهالكة ، تهب عليها رياح الصحراء . .

تحركنا فى اليوم التالى ، الى بركة عيون . وهى تقع تحت صخور كلسية حادة يبلغ ارتفاعها حوالى المائتى قدم ، على رأس وادى « الفضون» . ويقول الطمطائم إن أفعى كبيرة تعيش فى هذه البركة ، وأن هذه الأفعى تبتلع عنزا عندما ترد القطعان ماءها للشرب . .

وسقينا الأبل ، وملأنا القرب . وازدحم الطريق الى البركة بالجمال . .

قرأت لكثير من الانجليز عن الأبل . ولكننى أعتقد أن كل ما كتب إن دل على شىء فأنما يدل على جهل الكاتب بحقيقة هذه الحيوانات ، وعلى أنه لم يعش بين البدو ، ليعرف قيمتها . فالبدوى يسمى الجمل « خير الله » . وطبيعة الصبر عند الأبل تجعلها محببة عند العرب . ومارأيت أعرابيا قط يضرب جملا أو يقسو عليه . ولا يرجع السبب فى هذا الى اعتماد الأعرابى على الأبل فحسب ، بل إن الأعرابى يكن حبا صادقا للجمل ، لقد رأيت زملائى يقبلون الجمال ويربتون على ظهورها ، وهم يتمتمون بعبارات الحب.

وفى أثناء سيرنا عبر الصحراء ، على مسيرة نحو ثلاثين ياردة من إبلنا ، تحدى « سلطان » زميلا له أن يدعو اليه ناقته ، ودعا الرجل الناقة فأتت اليه مسرعة . وناقة أخرى كانت شديدة الحب لصاحبها إلى حد التعلق به .

فكانت تهمهم وتأتيه وهو نائم لتشمه قبل العودة إلى المرعى وأنبأنى أحد الرفاق أن هذه الناقة لا تسمح لغريب أ يمتطيها مالم تـكن معه قطعة من ثياب صاحبها

والإبل جميلة فى أعين البدو ، يتغزلون فيها ، ويشببون بهـا ، كما يفعل الانجليز مع فرس أصيل . ولا ريب أن هناك شعورا بالقوة والتناسق والرشاقة فى تكوين هـــذه الحيوانات . .

ومن النادر أن ترى أعرابياً يعدو بجمله ، فالبدو يسيرون فى بطء . .

استرحنا تحت أشجار الأقاصيا ، وأتى العرب من ناحية البركة يحملون « قرب الماء » المصنوعة من جلود الماعز . وقد تعودت منذ اختلاطى بالبدو أن أستخدم أشياءهم ، وألا أحاول تعديل ما فطروا على استخدامه ، فالبدو يدركون ما يصلح لهم ومالا يصلح . وجلود الماعز خير أداة لحفظ المـــاء إذ يمكن طيها وحملها بعد خلوها من الماء وهى لا تزن كثيراً . كما أنه من المستطاع اصلاح أى عيب قد يطرأ عليها بطرق بسيطة . .

خرج « مسلم » للصيد بين الصخور ، وعاد قبيل الغروب يحمل صيداً مسناً . وتعاون مع « أبن أفوف » فى عملية الطهو رغم إرهاقه الشديد . وطعمنا جميعاً ، فى جو من المرح والفكاهة . .

ولم يستخدم « مسلم » طريقته القديمة فى توزيع الطعام . هذه الطريقة التى تعتبر أسلم طريقة ، خوفا من المشاكل التى قد يثيرها عدم العدالة فى التوزيع ولم أسمع أحد منهم يشكو قلة نصيبة . فالبدوى حريص على ألا يظهر بمظهر غير القنوع .

وجلسنا نأكل الأرز ، الذى صب عليه « مسلم » بعض الحساء . وكان أمام كل منا نصيبه من اللحم ، وأكلنا بأيدينا كما يفعل الأعراب . والعربى يتناول طعامه بيده اليمنى دائما ، ويتجنب أن يمس الطعام بيده اليسرى بالقدر المستطاع لأنه يغتسل بهـــا بعد قضاء حاجته . ولذا يجد من سوء السلوك أن يقدم بهذه اليد شيئا إلى سواه أو يقبل من غيره شيئاً عن طريق هذه اليد .

وجلسنا ، بعد العشاء ، نتحدث . والحديث غير مملول عند البدو . وهم مستمعون ممتازون . لا يقاطعون ولا سيما اذا كان المتحدث شاعراً يلقى قصيدة على مسامعهم .

وهم ينظمون الشعر فى يسر وسهولة . وقد سمعت صبياً منهم ، يرتجل قصيدة فى وصف المرعى ، وقد أخذ يعبر بطريقة طبيعية عن شعوره .

سافرنا ، بعد ذلك ، شمالا الى « الفضون » وهو أحد المجارى النهرية الجافة التى تمتد من السلسلة الساحلية لتكون وادى « أم الحياة » ووجدنا فى طريقنا بعض النباتات التى تنتشر بين الصخور التى كنت أتسلقها ، أحيانا ، بحثاً عن الدعول . وفى خلال تجوالنا ، مررنا بعائلتين أو ثلاث من « بيت كثير » . لم تكن تعيش فى خيام ، بل تحت الشجر وفى ظلال الصخور . وتوقفنا ، ليلا ، عند عائلة « منجوت » حيث كانت زوجته وولداه اللذين يناهز أكبرهما الثانية عشر ، وكان معهم شاب ، قال عنه « منجوت » إنه ابن عمه . وذبح لنا « منجوت » عنزة قامت زوجته بطهوها :

وكانت كل ممتلكات « منجوت» ملقاة على الرمال . وهى لا تعدو كأساً

للشرب ، بعض قرب الماء ، جلد ماعز يمتلىء نصفه بالطحن ، بساط قديم وبعض الفرش وسرجان للجمال ، ووعاء لجلب الماء ، ثم ربطة من الحبال .

ووصلنا فى اليوم التالى إلى نبع ماء غزير ، علمت من رفاقى أنه يمتد إلى عمق خمسة وأربعين قدماً .

فى هذه الصحراء بين عمان وحضرموت ، يوجد القليل من الماء ، والآبار فى هذه المساحات الشاسعة تكاد تعد على الأصابع . ومعظمها يجف بعد أن يشرب منها عدد من الجمال .

ومررنا بعد ذلك بأرض لون ترابها قاتم . كان من الصعب على المرء أن يعتقد أن هذه الأرض القاحلة القفر كانت يوما ذات ورود وأزاهير . أما اليوم فكل شىء فيها يحكى عن الموت .

والأعراب يحلو لهم الكلام عن الموت . فهم يذكرون موتاهم فى الغزوات ، ويشيرون إلى مقابرهم التى تتناثر هنا وهناك .

وأبديت رغبة لسلطان أن أزور بعض هذه المقابر . وسرنا الى حيث سهل صغير محوط ببعض الصخور المتفتتة . تنمو بها بعض الأعشاب .
وهناك رأيت مجموعات من القبور . كانت كل منها تتألف من مثلثات ، يحوى كل مثلث من ثلاثة إلى خمسة عشر قبرا . وكل قبر يتكون من ثلاث مصاطب يبلغ ارتفاعها القدمين ، ومرتكزة كل منها على الأخرى بحيث تؤلف قواعدها مثلثاً ، وعلى رأس بعض هذه القبور حجر رابع مستدير .

ومن عادة آل « بيت كثير » الا يحفروا لموتاهم قبورا إلا نادرا . فهم يسندون جثث موتاهم الى صخرة أو يضعونها فى شق صخرة .

وتجولت بين القبور وأخذت صورا لها . وأخيرا ناداني « سلطان » قائلا « تعالى يا مبارك » وكان هذا هو الأسم الذى اعتاد أن يناديني به . « أركب جملك، ولنلحق بالباقين . فليس ثمة وقت للتلكؤ . إن « شيصور » ليست ببعيدة . وهى معقل اللصوص . تعالى . فليست هذه الأشياء « القبور » بذات الشأن . إنها قطع من صخر أقامها القدامى . هيا ، يا رجل .

وأمتطيت ناقتى وأسرعنا فى أعقاب الآخرين . كنت أعتقد أن بوسعنا أن نسير حتى نصل حدود سوريا أو الأردن ، دون أن نمر بقرية أو حتى بشجرة نخيل . فالمسافة من مكاننا الى دمشق تساوى نفس المسافة من جنوب الهند حتى جبال هملايا .

إن عدد العرب فى شبه الجزيرة يقدر بحوالى سبعة ملايين ، حسب ظنى، والربع منهم بدو ، يعيشون فى الصحراء . بينما يسكن الباقون الأماكن التى يمكن الاستقرار فيها . ويعيش عدد كبير منهم فى اليمن .

وللبدو سلطة معنوية بالأضافه الى السلطه المادية. فقد اضطروا القرويين والمدنيين الذين يحتقرونهم على ان يلمسوا ، لاشعوريا ، تفوقهم عليهم ، فهم يقدسون الحرية ويفضلونها على كل متعة ورخاء . ويتحملون الآلام والمشاق. ويعتزون اعتزازا عميقاً بقسوة حياتهم .

لقد سمعت أهل الحجاز يذمون البدو لخشونتهم والفوضى التى يعيشون فيها ويلعنونهم لأنهم لا يصلون ولا يصومون . ويذكرون بكل ازدراء ماهم عليه من فقر . ولكنهم رغم كل هذا لا يملكون الا الاعتراف بشجاعتهم وكرمهم

الخيالى . بل لقد أخذوا يقصون على حكايات تشبه المستحيل .

والبدو واثقون من تفوقهم ، يؤمنون به كل الايمـان ويستبين هذا فى تصرفاتهم ومعاملاتهم لأهل الحضر ، فنى نجد ، مثلا ، نجد أن بعض القبائل لا يعتبرون من الشرف أن تتزوج إحدى بناتهم حتى من أحد ملوك العرب وقد سألت بعض بنى رشيد الذين زاروا الرياض كيف خاطبوا الملك ، فاجابوا فى دهشة « نادیناه عبد العزيز . بماذا كنت تريد أن نناديه » « قلت » تنادونه ياصاحب الجلالة » فأجابوا « إنما نحن بدو . ليس لنا من ملك ألا الله سبحانه وتعـالى » .

والمجتمع الذى يعيش فيه البدو مجتمع قبلى . بمعنى أن كل فرد فيه ينتمى الى قبيلة . وأفراد كل قبيلة أقرباء ، فهم ينحدرون من جد واحد . وكلما قربت الصلة ، قوى الأخلاص . وهذا الأخلاص يتغلب على الشعور الشخصى الا فيما ندر . ويسـاعد الرجل رفاقه فى القبيلة بصورة غريزية محضة ، وليس فى الصحراء أمان لبدوى خارج نطاق قبيلته .

والمال الذى يحصل عليه أى بدوى يقسم بين أفراد عائلته وقبيلته . فما سأعطيه للواحد منهم سيقسم على أفراد آخرين لم يشتركوا معنا فى المغامرة .

لقد تسبب اكتشاف البترول فى شبه الجزيرة العربية فى ثراء حكامها. ثم جاءت الحرب فارتفعت الأسعار فى المدن . أما فى الصحراء ، فالبدوى لا حاجة له الى المال إلا لشراء بعض حاجياتهم من ثياب وخناجر وبلح وطحن وبن وشاى . ويزور البدوى الأسواق ليبيع جملا أو عنزة ليبتاع قليلا من الزبد وقرب الماء والحصير .

وقد زادت قسوة الحياة فى الصحراء بعد ارتفاع أسعار الحاجيات الضرورية التى كان البدوى يشتريها مقابل بعض المنتجات التى لم يعد أحد من أهل المدن يحتاجها ومع هذا فالبدو يحبون المال، وهم يتحدثون عنه كثيرا. وكثيرا ما يناقشون ثمن ملفحة أو منطقة أو خرطوش عدة أيام دون انقطاع. ومن تسلياتهم أثناء السفر، المساومة على بيع جمل. فيساهم الجميع فى الكلام رغم علمهم بأن الجمل لن يباع.

وكثيرا ماراودت أحلام الأعراب فكرة الذهب المدفون. وفى وادى « دفن » قرب « حبروت » أشار رفاقى الى خندق، زعموا أن به كنزا مدفونا. وكنت أنهرهم عندما يكثرون الكلام عن الكنوز المدفونة فكانوا يقولون « إنك لا تهتم بالمال، لوفرته لديك. أما نحن فإن بعض ريالات تعنى النجاة من الموت جوعا ».

وفى وسع البدوى أن يجد المال الوفير الذى طالما داعب خياله، لو أنه قام بأى عمل فى حقول البترول، كحراسة محطة من المحطات. ولكن حب الحرية الغريزى يدفعهم نحو الصحراء..

إن عرب الجنوب لم يتأثروا بالتطورات الاقتصادية التى وقعت فى الشمال. وإن كنت أعتقد أن هذا لن يدوم طويلا..

وتبعت سيرى على مبعدة من الآخرين، رغم الحاح « سلطان » أن ألحق بهم. فقد كان جد مشوق الى الحديث مع رفقائه بعد أن وجد منى انصرافا عن الكلام معه..

لقد كنت أفكر فى أثر العرب على التاريخ العالمى . لقد فرض أعراب الصحراء ميزاتهم وخصائصهم وتقاليدهم على الجنس العربى كله . فالعادات والمعايير التى أنتشرت عن طريق الفتح الأسلامى حتى شمال أفريقية والشرق الأوسط ، بل والتى شملت جزءاً كبيرا من العالم . كانت كلها قادمة من الصحراء . وأخذت حضارة اليمن تندثر ، لتحل محلها اللهجة العربية ، وتصبح اللغة الفصحى لجميع سكان الجزيرة . . .

وبانتشار الأسلام ، بدأت أهمية الجنوب تتضاءل تدريجيا ، وانتقل مركز الثقل الى الشمال حيث توجد مكة . .

حقا . لقد كان بدو الصحراء غزاة حفاه ، يكرهون الغريب ولا يطيقون القيود ولكنهم كانوا فى الوقت ذاته نبلاء ولأول مرة فى تاريخهم جمعهم الأسلام فى القرن السابع الميلادى تحت لوائه فجرفوا كل شىء أمامهم . وأغاروا على أغنى ممتلكات الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الفارسية فامتلكوها وأخضعوها لسلطانهم . .

ولم يكد يمر قرن واحد على معركة اليرموك ، حتى امتد حكمهم من جبال البيرينيه وشواطىء الأطلسى ، الى الهند وحدود الصين ، فأسسوا امبراطورية تبلغ مساحتها أكثر من مساحة الدولة الرومانية . لقد خرجوا من الصحراء يجمع بين قلوبهم إيمان جديد . ولم يفعلوا فى غزوهم مافعل أتيلا وجنكيزخان اللذان خلفا وراءهما الخراب والدمار ، بل كانت إحدى عجائب التاريخ أن العرب خلفوا ، فى البلاد التى فتحوها ، مدنية جديدة جمعوا فيها حضارتى الفرس والبحر الابيض المتوسط اللتين لم تجتمعا من قبل . وأصبحت اللغة

العربية ، لغة سائدة يتكلمها المسلمون من بلاد فارس حتى جبال « البيرينيه » على الحدود الفرنسيه الأسبانية ، حتى تفوقت هذة اللغة على اليونانيه واللاتينية ، وتطورت حتى أصبحت من أرقى اللغات فى العالم . وبانتشار الأسلام واللغة العربية فى الامبراطورية الجديدة زالت التفرقة بين الغزاة من العرب ورعاياهم . وأصبح المسلمون أصدقاء للشعوب التى غزوا بلادها وعاشوا فى مجتمع واحد . .

ورغم أن الحضارة الأسلامية تأثرت الى درجه كبيرة بالفكر اليونانى ، وبالحضارات الأخرى ، إلا أنها لم تكن أبدا مقلدة . بل كانت لها مقوماتها الخاصة ، ممتزجة بخلاصه حضارات العالم فى مختلف الفنون ، ومما يذكر للعرب بالفضل ، أن ظهر فى مجتمعتهم عدد من المفكرين والأعلام من أصل غير عربى بل ولا يدينون بالاسلام ،إن ما يقرب من سبع سكان العالم يدينون اليوم بالأسلام . هذا الدين الذى بشر به « محمد » عليه السلام فى الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى . والدين الاسلامى دين ينظم طقوس المسلم الدينية كما ينظم حياته الاجتماعية حتى النواحى الدقيقة فيها . وفى اعتقادى أن حضارات العالم اليوم ستندثر تماما كما اندثرت حضارات بابل وآشور ، وأن كتاب التاريخ المدرسى بعد ألفى سنة سيتضمن صفحات عدة للحضارة العربية فى الوقت الذى لن يذكر فيه الى جانبها حتى الولايات المتحدة الامريكية . .

انتهيت من هذه الافكار ، فى الوقت الذى كان فيه رفاقى يفكون أحمال إبلهم . لقد لحقنا بهم . .

فى تلك الليلة تدفأت بثياب النوم . أما رفاقى من البدو فقدظلوا يرتجفون من قسوة البرد . لقدكان بوسع أى فرد منهم أن يعمل فى حقول « سلالة » لورضى بالمقام فيها . ولـكنهم آثروا هذه الحياة القاسية ، لأنهم يحتقرون الحياة السهلة .



الباب الخامس

إلى الربع الخالى

وصل ركبنا الى (شيصور) التى كانت تعتبر المركز الرئيسى للشرب عند الغزاة ولقد شهدت (شيصور) العديد من المعارك الحربية . وحاولت الوصول الى بئر للشرب كانت المياه مدفونة تحت الرمال ، فكان لزاما أن نقوم بالحفر كى نصل اليها ، وعرضت على الاخرين أن أساعدهم . ولكنهم رفضوا بحجة ضخامة جسمى وعدم صلاحيتى لهذا العمل وانقضت ساعتان فى عمل شاق مضن قبل أن يتمكن الرجال من الوصول الى الماء . وشربت الابل حتى روت ، ثم ناخت .

وبين الحين والحين كانت ناقة تنهض من مرقدها فجأة ثم تركض حرة على مدراج الرمال الفسيحة ويأخذ صاحبها فى الركض وراءها محاولا اعادتها منادياً إياها باسمها . ! !

وعلى حين فجأة ، أعلن الحارس إنذاراً بالخطر ، وسرعان ما أمسكنا بالبنادق ، وتحصنا حول العين ، بعد أن جمعنا الإبل وراء الأكمة .

ورأينا عل مبعدة منا فرسانا يتقدمون ، فأطلقنا طلقتين فى الفضاء تحذيراً للقادمين ولكنهم واصلوا تقدمهم ونزل أحدهم ونثر بعض الرمل

فى الهواء دلالة الســـلام والأمان وهدات نفوسنا ، وازدادوا منا قرباً فتعرف عليهم بعض أفراد بعثتنا ،كانوا من (آل رشيد) عرفهم البدوى من ابلهم ، وهذ طبيعة البدو ، يميزون الابل اكثر من البشر ، ولهم علامات أخرى يستطيعون عن طريقها معرفة القبيلة التى ينتمى اليها الوافد عليهم . وقد يميزونه من طريقة وضع حزام الخرطوش حول وسطه ، أمشدود هو أم مرتخ . وقد يتعرفون عليه من كيفية ارتدائه لعقاله ، أو من طيات ردائه كل هذه الاشياء التافهة كفيلة بالاضافة الى لهجته بتوضيح نسبه ومعرفة قبيلته .

والتقينا بالفرسان الوافدين : ووقفنا صفا لاستقبالهم ، وأوقفوا جمالهم على بعد ثلاثين ياردة ثم أناخوها . وتقدموا الينا . كان من بينهم (ابن شواس) و (ابن مطلق) وكانا يلبسان رداء حول الوسط فحسب . بينما كان الاخرون يرتدون ملفحات وعباءات استطعت ان أميز من بينها عبارة (ابن قبينه) فقد كانت شبيهة بتلك التى أعطيته اياها عندما افترقنا فى حضر موت .

ونادانا (محسن) الذى ميزته برجله العرجاء قائلا « السلام عليكم » وكان ردنا جميعاً عليه « وعليكم السلام » ، ثم مر بنا أفراد القافلة واحدا إثر الآخر يحيوننا على طريقة « قبلة الأنف الثلاثية » وهى تبدأ بلمس الأنف للأنف من الجهة اليمنى ، ثم من الجهة اليسرى ثم من اليمنى ثانية ، وبعد أن انتهت تحيتهم لنا وقفوا فى صف مقابل لصف رجالنا وسألنى (الطمطائم) أن استفسر منهم عن الأخبار ولكنى رفضت مطالبا إياه بأن يكون هو السائل فهو أكبر الجميع سنا ، وصرخ فيهم (الطمطائم) « ما أخباركم ؟ » واجابه (محسن) الاخبار طيبه « وسأل (الطمطائم) مرة أخرى « هل مات أحد ؟ » وكانت الإجابة « لا تقل هذا » ! » واستمرت عمليـة السـؤال والجواب طويلا . إن طبيعة

البدوى لا تتغير بتغير الظروف فهو يقرر دائما أن الحالة طيبة اذا ما سئل مهما كان يعـانى .

وعادوا بعد ذلك الى إبلهم فأراحوها . وقمنا من جانبنا بمد الحصير على أديم الصحراء احتفاء بهم ونادى (الطمطائم) ابن أنوف كى يعد القهوة لهم ووضع (مسلم) صحفه من التمر امامهم ، ثم قدمت القهوة حسب أهمية أفراد القبيلة ، وبعد أن شربوا القهوة وأكلوا من التمر ، قدمت لهم القهوة للمرة الثـانية .

كان ضيوفنا من (آل رشيد) ضئيلى الاجسام مهزولين ، وقد أحرقتهم حياة الصحراء فتركتهم جلودا على عظـام ، لقد كانوا فى جلستهم أمامنا ظاهرى التحفظ فى حركاتهم بطيئى الكلام عند التحدث ، حريصين على الاحتفاظ بهيبتهم أمامنا ، نحن الغرباء .

وجلس محسن وقد مد رجله المشلولة أمامه وكان فتى مشهورا بالبسـالة والبطولة ولكن (محمد عوف) كان هو الذى استحوذ على كل اهتمامى فقد أنبأنى (ال رشيد) عندما كان معى فى السنة الماضية أنه فقد روح الدعابة والمرح منذ أن قتل (ال صعر) أخاه إنه فتى وسيم يناهز الخامسة والثلاثين ذو قوة وفيه ثقة بالنفس ، يمازجها ذكاء .

ووقع بصر (ابن قبينة) على فصرخ قائلا « كيف حالك يامبارك ؟ أين كنت منذ غادرتنا ؟ » لقد بدا هـزيلا وأطول قامة مما كان وقد سرتنى رؤيته ثانية فقد أحببته منذ أن عاشرته، واستمعنا الى الأخبار وما كان أكثرها . لقد سلب (الدهم) (المناهل) ، وأخذت (المناهل) عددا من أبل (اليم ׳

وسطا (ال صعر) على (الدوائر) . وسألت عن (ابن الكمام) فأنبئت بأنه قد سافر الى اليمن ليعقد هدنة مع (الدهم) .

وتسلقت مع (ابن قبينه) الى حيث القلعة الخربة فوق البئر بينما كان الآخرون يروون الأبل ويعبئون الماء فى الجلود وسألنى (ابن قبينه) اين سأذهب فاجبته بأنى سأعبر الربع الخالى وطلبت اليه كتمان الأمر عن الاخرين ونصحنى (ابن قبينة) قائلا ، ان آل بيت كثير ، لا يصلحون لعبور الصحراء ولن يرتضوا الذهاب معك . أما (ال رشيد) فهم أقدر على ذلك ومن حسن الطالع أن (محمد عوف) هنا ، وهو خير دليل يعتمد عليه فهو عليم بمسالك الصحراء الشرقية ، وسألت (ابن قبينة) عن سبب هزاله فاجاب بأنه كاد يلقى الموت خلال غيبتى ، إذ أجريت له عملية ختان فاصابه نزف حتى شارف الموت أو كاد . وقص على قصة ختانه مع ثمانية آخرين وكيف أجراها لشيخ من بيت (خوار) فى وادى (كيديوت) لقد دهنوا اجسامهم بالزبدة ، والزعفران قبل إجراء عملية الختان . وأجريت لهم العملية وهم جلوس على صخرة وقد بدأ شيخ بنى (خوار) بابن قبينة لصغر سنه . وبعد العملية وضع الشيخ على الجرح مزيجا من الملح والرماد وروث الأبل المسحوق . ويقول (أبن قبينه) إنه شعر وكأن نارا تلسعه وما أن أقبل الليل حتى بدأ الجرح ينزف .

وسألت (أبن قبينة) سبب إرجاء أهله لعملية ختانه حتى كبرت سنه فاجاب بان هذه هى العادة عندهم بل إن ابناء قبيلة (المهره) لايختتنون حتى ليلة زفافهم .

وذكرني ذلك باحتفال شهدته منذ خمسة شهور في (تهامة) لقد ظل الصبيان الذين حل دورهم للإختتان ينتظرون أن يعلن شيوخ القبيلة متى هذا اليوم المشهود. كانوا يلبسون أردية حمراء قصيرة ضيقة الاكمام، وسراويل بيضاء واسعة، تضيق عند الركبة وما أن حل اليوم المنشود حتى ركبوا الإبل وأخذوا يطوفون بالقرى المجاورة تتقدمهم الموسيقى وعند المغيب عادوا إلى قريتهم، يتبعهم جمهور كبير، وأخذ أصدقاؤهم يساعدونهم على خلع السراويل. ثم وقف كل منهم وقد باعد ما بين رجليه ممسكاً بشعره، وهو يحملق في الخنجر الموضوع أمامه دون أن تطرف عينه، وما أن انتهت العملية حتى قفز إلى الأمام وأخذ يرقص رقصاً جنونياً على وقع الطبول أمام الجمهور بينما تسيل الدماء على فخذيه.

غادرنا (شيصور) فجراً في التاسع من شهر نوفمبر. تسبقنا الإبل كالعادة إلى أن اشتدت حرارة الشمس فامتطينا ظهورها واندفعت الإبل بنا عبر السهل المنبسط ورأينا الغزلان تقفز مسرعة من أمامنا وكذلك الأرانب البرية.

وخلال مسيرنا حدثنا (ابن شواس) عن عمه وكيف حملوه مربوطاً على جمل مدة ثلاثة أيام، وقد برزت عظام فخذه من خلال جلده، كي يتواروا عن أعين اللصوص الذين كانوا يتعقبونهم وقص علينا (ابن مطلق) قصة الغزوة التي قتل فيها الفتى (سهيل) برصاصة راع من آل (صعر) وكيف ثأر اهل (سهيل) لقتل فتاهم بأن طعن (بخيت) أب (سهيل) صبياً من آل (صعر) بين ضلوعه حتى مات.

كانت حياتنا يحف بها خطر هجوم (آل صعر) علينا فجأة في أى ساعة من النهار أو الليل وسرنا عبر الصحراء الممتدة أمامنا وهدفنا (مقشن).

وحدث فى إحدى الليالى أن كنت نائماً فى العراء قرب (مقشن) وقد أيقظنى صياح وصراخ متواصلين ينبعثان من ناحية جماعة البدو وسألت عما حدث وكان رد (ابن قبينة) أن (سعيداً) أصابه مس من الجن وعلى ضوء القمر الهادىء رأيت الصبى وهو أحد أبناء (بيت كثير) يجلس القرفصاء فوق نار صغيرة ، وقد غطى وجهه بقطعة من قماش وهو يهتز ذات اليمين وذات الشمال وتندو عنه صرخات مفزعة وقد جلس الآخرون صامتين مشدوهين على مقربة منه وفجأة أخذوا فى تلاوة بعض التعاويذ بينما بدأ (سعيد) يتلوى حتى سقط أحد أطراف القماش فى النار وهدأت ثورة الصبى شيئاً فشيئاً . وأشعل أحد الحضور قليلا من البخور فى وعاء ثم قربه من أنف الصبى المختفى وراء قطعة القماش . وفجأة بدأ الصبى يترنم بصوت حاد غريب والجميع يرددون كلاما بعده وما لبث أن هاج ثانية ثم هدأ ، ومال عليه أحد الرجال يسأله أسئلة كان يجيب عليها وهو فى شبه غيبوبة .

لم أفهم شيئاً مما دار فى الجلسة من أسئلة وأجوبة فقد كان الحديث بلهجة (المهرة) وبعد أن أعطى (البخور) للمرة الثانية ذهبت عنه اللوثة وتمدد لينام ولكنه لم يلبث أن أفاق وأخذ يبكى بمرارة ويئن كأن به ألماً مبرحاً . وتجمع الرفاق حوله يرتلون حتى هدأ وعاوده النوم . إن الاعتقاد فى بدعة (الزار) عميق فى بعض الشعوب ويعتقد الكثيرون أنه نشأ فى الحبشة أو أواسط أفريقية ولكننى أعتقد أن ميلاده كان فى جنوبى شبه الجزيرة العربية ـ ولقد علمت من رفاق الرحلة أنهم لكى يبعدوا الأرواح الخبيثة عمن به مس لابد من استعمال لهجة (آل مهره) والمعروف أن أجداد (آل مهره) كانوا يقيمون أصلا فى بلاد الحبشة .

وصلنا إلى (مقشن) بعد رحلة دامت ثمانية أيام من (شيصور) كنا

على مقربة من العين وكان (محسن) يحدثنا عن المعركة التى جرح فيها بينما هو جالس على ظهر جمله وقد مد رجله المشلولة أمامه وفجأة أرتاعت الإبل وأخذت تعدو فى قفزات واسعة . وراعنى أن رأيت أحد البدو يسقط عن جمله بينما كنت أحاول جاهداً الاحتفاظ بمكانى فوق ظهر الجمل . إنه (محسن) لقد سقط على الأرض دون حراك . ركضنا جميعنا إليه فإذا برجله المشلولة قد انثنت تحته وأنينه ينم عن ألم بالغ يقاسيه المسكين لقد سقط الغطاء عن شعره فإذا به وقد خطه الشيب إذ كان أكبر مما أعتقد ، حاولنا إنهاضه فلم نستطع وعلا صراخه ، متحدثا إلى .. (المورفين) لأحقنه به .

من حسن الحظ أن عين الماء كانت قريبة . وربما كان هذا هو السبب الذى من أجله أجفلت الجمال ، ومن أغصان الأشجار صنعنا جبيرة لرجل (محسن) التى لم يتبق منها إلا عظام قد سحقت ، وجلس (ابن شواس) إلى جانبه يذب عن وجهه الذباب بينما جلس بقية القوم يتناقشون هل ستقدر له الحياة بعد ما حدث أم سيلقى منيته .

وتناقشنا فى المساء فيما يجب عمله . إن (محسن) ليس من مصلحته أن ينقل من مكانه ، فيجب أن يبقى حيث هو حتى يتقرر مصيره . وهذا معناه بقاء (آل رشيد) إلى جواره لقد قتل (محسن) عدة رجال من (آل صعر) فى الماضى ولو أن أعداءه ، عرفوا أنه على هذا الحال لأتوا وقتلوه ، وهكذا خاب أملى فى اصطحاب آل رشيد فى محاولة اجتياز الربع الخالى ، وسيكون (آل كثير) هم عمادى فى هذه الرحلة .

وفى اليوم التالى أخبرنى (ابن قبينة) أن (آل رشيد) قد وافقوا على أن يرافقنى هو وعوف فوافقت وأنا جد مسرور ، وتحسنت حال (محسن)

واستطاع أن يشرب الحليب وكنت قد وعدته البقاء معه إلى أن يصبح وشيك الشفاء، وأعطيته حقنة ثانية من (المورفين) لأدفع عنه الألم وتحدثت بعد ذلك مع سلطان بشأن إرسال (ابن قبينه) ليتفق مع رجال آخرين خشية ألا يقبل (بيت كثير) عبور الصحراء معى . فاحتج سلطان قائلا « كيف تقول هذا ، يا مبارك ؟ إصغ إلى ، ألم أعدك عبور الصحراء معك إلى الربع الخالى ؟ أنا سلطان ! فما حاجتك من الآخرين ؟ ثم إنك تعرف (بيت كثير) . إنهم أصدقاء قدامى وهم زملاؤك فى العام الماضى . هل خيبنا ظنك مرة ؟ بالله قل لى يا مبارك لماذا لا تضع ثقتك فينا ؟ . .

أقمت فى (مقشن) تسعة أيام . كانت الصحراء حافلة بأشجار الغاف (الميموزا) والتمر هندى بينما كانت السهول مغطاه بأعشاب (العرادة) المالحة التى تأكلها الإبل ، وعلى مقربة من العين قامت أجمة كثيفة من النخيل . .

من عادة البدو أن يقطعوا أطراف الشجر كى يطعموا إبلهم ، ولكننى لاحظت أن أشجار (الغاف) لم تكن مقصوصة وذلك راجع إلى أن (مقشن) مما يطلق عليه إسم (حوطة) أى لا يجوز قطع الأشجار فيها ، ولعل مثل هذه الأماكن كانت فى الزمن الماضى دور عبادة مقدسة لأحدى الفرق الدينية ، وكان البدو يحذروننى من اقتطاع شىء من أطراف هذه الأشجار خوفا مما يجره مثل هذا العمل على صاحبه من نكبات قد تنتهى بالموت .

ومما يجدر ذكره فى هذه المناسبة ، أن صيد الأرانب محرم كذلك فى (مقشن) ولهذا يجتنبه البدو .

وحدث فى المساء أن سمعت صياحاً وضجة فى الناحية التى تقع خلفنا حيث كان آل رشيد يجلسون حول (محسن) واصطحبت (ابن قبينة) إلى حيث الضجة ، وتبعنا الباقون وتبين أن (عميراً) كان يتشاجر مع (ابن مطلق) ، ولم أدر سبب الشجار فقد كان الجميع يتكلمون فى نفس الوقت وهذا يعكس طبيعة الجنس البدوى الذى يرى كل فرد فيه لنفسه الحق مهما كان صغيراً ، فى إبداء رأيه ، والبدوى لا يرى أن هناك شأناً خاصاً به وأن عليه ألا يتدخل فى شئون الآخرين ، بل إنه يعتقد أن مايهم أى فرد فى مجتمعه يهمه هو كذلك .

وتكشفت الحقيقة عن سبب الشجار فقد أضاع (عمير) جملا من بضعة أسابيع وتطوع «ابن مطلق» بالبحث عنه بعد أن وعده « عمير » بخمسة ريالات إن وجده وها هو قد عثر عليه ولكن « عميراً » أبى أن يفى بوعده زاعماً أنه كان منذ البداية يعرف مكان الجمل وتحاكما إلى « الطمطائم » وقضى «الطمطائم» لابن مطلق بأحقيته فى المبلغ بشرط أن يقسم أنه لم يكن على علم بمكان الجمل . وقد ارتضى الاثنان الحكم وهكذا يفض أى نزاع يقوم بين البدو . . .

وفى خلال إقامتى فى « مقشن » كثر طلب الرفاق للأدوية التى كنت أحملها معى فالبدو يقاسون دائماً من الصداع وآلام المعدة . ويعمد البدو فى كثير من حالات المرض إلى الكى .

وقد أتانى يوما احدأبناء (بيت كثير) وكان يشكو من ألم فى ضرسه وطلب منى أن أقوم بنزعه ورغم كراهيتى لخلع الأضراس فقد قمت بخلعه له بدون صعوبة .

كانت الغزلان كثيرة فى (مقشن) وكان مسلم وابن شواس يصطادان نها كل يوم غذاءنا . وساورنى القلق على ماتبقى لدينا من طعام . فقد كان على ن أقاسمه مع (محسن). وآل رشيد، والبدو بوجه عام لايعرفون الحرص ى تصرفاتهم فقد أغرتهم كثرة الطعام بطهو وجبات سخية من المؤن التى كانت تتناقص سريعاً وهم لا يهتمون بجودة الطعام اهتمامهم بكميته .

وطال النقاش حول من يذهب معى ومن يبقى وأخيراً استقر الأمر على أن يرافقنى (ابن قبينه) والعوف وسلطان ومسلم ومبخوت بن تركى وسعيد صاحب الارواح الشريرة وخمسة آخرون من بيت كثير .

كنت أعتقد أن سيأتى معى عدد من الرجال أقل ، مع عدد من خير الابل ، ولكن سلطان أفهمنى أن بوسعنا استبدال الابل من بيت (موسان) الذين ، كانت قطعان ابلهم على بعد أيام فى الصحراء وأقنعنى سلطان أنه من الخطر كل الخطر أن نكون قلة فى ذلك الموقع من الصحراء وخاصة فى بلاد (الدورو) فى عمان ، وعلمت منه أن (الدورو)عندما سمعوا بزيارتى لمقشن فى العام الماضى أقسموا ألا يسمحوا لكافر مثلى بأن تطأ قدماه أرض بلادهم وعلى هذا قررنا أن نعود إلى الالتقاء بالبقية من رفاقنا فى (باى) على الشاطىء الجنوبى بعد زهاء شهرين .

وفى الرابع والعشرين من شهر نوفمبر قمنا باعادة توزيع ما نملك من مؤن وفحصنا جلود المياه واشتريت ناقة ابن شواس كى يركبها ابن قبينة واخترت لنفسى ناقة قوية .

القيت على (محسن) نظرة وداع ، وكان قد أبل تقريباً بعد أن امتنع

بضعة أيام عن تناول الطعام ، وحملنا متاعنا ، ثم ودعنا الآخرين ، وانطلقنا عبر الصحراء وبدأت رحلتى لاجتياز الربع الخالى .

الباب السادس

على مشارف الربع الخالى

حاولت بعد العشاء أن أتحدث إلى محمد العوف طويلا فقد كان الوحيد بين الرفاق الذى سبق له اجتياز الربع الخالى والتعرف على كافة الأحوال هناك وكان محمد العوف فتى هادئاً ، يدعو إلى الثقة به والاطمئنان اليه ، وهـــذا ماجعل أبناء بيت كثير يغارون منه ، لهذا حرص على ألا يتحمل مسئوليته كدليل لنا إلا بعد أن كنا نجاوز الأماكن التى يعرفها آل بيت كثير ، وكانت مهمة سعيد الصغير ابن شيخ (بيت موسان) أن يقودنا حتى رملة الغافة إذ كان وحده ، يعرفها .

كنت على ثقة من أن سلطاناً وكثيراً من رفاقنا سينضمون إلينـا حالما يروننى احادث العوف ولهذا أفهمتهم أننا ذاهبان لنرقب الأبل وهى ترعى ، وحملنا بنادقنا وتركناهم ، وبعد أن تجولنا قليلا جلسنا على مقربة من الأبل نتبادل أطراف الحديث ، فسألت العوف متى عبر الصحراء الشرقية ، فأجاب بأن ذلك كان من سنتين ، وقد ألحفت عليه فى امدادى بتفاصيل رحلته ولكنه ابتسم وأخذ يردد « إنى أعرفها » وزاد ثقتى فيه ، قال العوف : إننا إذا قطعنا عروق الشائبة الخيفة ، فإننـا سنصل إلى (ضفارة) ، حيث توجد القرى وعيون المـاء فى (واحة اللوى) » .

كنت قد سمعت عن ضفارة ، وعرفت أنها الحد النهائى الذى يتوقف عنده بدو الجنوب ، كانوا إذا أرادوا أن يحددوا عالمهم المعروف لديهم قالوا : حتى (ضفاره) وعلمت من العوف أن أحداً قبلى من الاوروبيين لم يدخل(واحة اللوى) ، وقد قدر المسافة بين موقعنا وهذه الواحة بسفر شهر كامل ، وهذا ما أثار قلقه من ناحية إبل بيت كثير التى لم تكن تصلح تماما لاجتياز (عروق الشائبة) لضعفها وسوء حالتها .

وسألت العوف عن طريق آخر فأجاب بالنفى ، اللهم إلا إذا سرنا فى طريق بعيدة جهة الغرب كما فعل توماس .

كان علينا أن نقطع قرابة الاربعمائة ميل قبل أن نصل إلى (واحةاللوى) فتناقشنا فى مشكلة الأبل والمسافة والطعام والماء مرة أخرى ، كنا نعانى نقصاً فى مواد الطعام فلم يكن معنا عند مغادرتنا (مقشن) غير مائتى كيلو جرام من الدقيق ، ومن الأرز ما يكفى وجبتين اثنتين ، وقد طهونا ما يقرب من نصف هذه الكمية ، يضاف إلى ذلك بضع حفنات من الذرة وقليل من الزبد والبن والسكر والشاى ، ومن الضرورى أن تكفى هذه الكميات الضئيلة اثنى عشر شخصاً مدة شهر على الأقل .

وتذكرت فى حسرة تلك الكميات من الطعام التى أضاعها البدو هباء فى الطريق إلى (مقشن) وسرح فكرى فى قسوةالجوع الذى ينتظرنا ، كان باستطاعتنا أن نحمل من الماء ما يكفى لمدة عشرين يوماً ، لو أن كلامنا اكتفى بربع جالون فى اليوم ، ومن طبيعة الأبل أنها تصبر على العطش لمدة حدها الأقصى عشرون يوماً ، وهذا فى حالة وجود ماتأ كله فهل سنمر بمرعى.؟، إنها المشكلة التي تواجه كل بدوى ، فلو لم نجد المرعى فستنفق الأبل ، ومعنى هذا

هلا كنا جميعا فليس الجوع وليس الظمأ مايخافه البدوى فالبدوى يستطيع تحمل الجوع والعطش والبرد سبعة أيام كاملة ، مادام فوق ظهر جمله ، إنما يخاف البدوى هلاك جمله فلو حدث هذا فإنه هالك بدوره لامحالة وسألت العوف عن رايه فى احتمال مرورنا بمرعى فكان جوابه : الله وحده يعلم فالمرعى موجودة حتى (رملة القافة) إذ نزل المطر هناك قبل سنتين ، أما بعد ذلك فمن يدرى ؟ وابتسم العوف ثم قال لاتيئس فسنجد شيئاً .

رجعنا إلى المخيم لننام ولكن النوم لم يزر عينى مدة طويلة فقد كنت قلقاً من ناحية الرحلة وغير واثق تماماً فى آل (بيت كثير) .

وطلع النهار ، وتركنا الأبل ترعى (القاف) حول المخيم ، وأكلنا نصف غزال كان مسلم قد صاده بالأمس وبحثنا عن النصف الثانى ، وكنا قد أخفيناه فلم نجده ودلت الآثار على أن ثعلباً قد سرقه ، وأزعجنى ذلك فقد كانت هذه آخر كمية من اللحم يمكن الحصول عليها لوقت غير قصير .

ولكن مسلم لم ييأس ، فتعقب آثار الثعلب حتى استطاع أن يجد اللحم تحت شجرة فحمدنا الله على ذلك .

واستأنفنا السير شمالا إلى صحراء (غنيم) . وقد زرتها فى العام الماضى ووصلنا إلى عين (خوربن عتريت) وقد سميت باسم البدوى الذى اكتشفها، بعد أربعة أيام من مغادرتنا (مقشن) كانت العين على الجانب الشمالى من أكمة عالية وكان مذاق مائها ملحاً .

تسلقت الأكمة واسترخيت بهدوء على ارتفاع نحو أربعمائة قدم فوق العين. إننى دائم الحنين إلى الوحدة وذلك هو الشىء الوحيد الذى لايشعر به البدوى طيلة حياته ، فقد سألنى الانكليز كثيراً هل شعرت بالوحدة فى

الصحراء ، وفكرت فى الدقائق المعدودة التى استطعت أن أنفرد فيها بنفسى طوال سنين عشتها هناك . إننى لم أشعر يوماً بالوحدة وأنا بين الأعراب لقد زرت مدناً عربية لايعرفنى فيها أحد ، ودخلت أسواق العرب ، وكنت إذا ما حييت بائعاً دعانى إلى الجلوس معه وأرسل فى طلب الشاى وانضم الينا أناس كثيرون ، يسألوننى عن حالى ومقصدى ولا يكتفون بذلك بل توجه إلى الدعوات من مختلف الأفراد للغداء والعشاء ! ! ترى كيف يشعر مثل هذا العربى لو أنه زار انجلترا لأول مرة ؟ إنى لأرثى له فسيجد فارقاً كبيراً بين عادات وعادات ! !

ورأيت (ابن قبينة) يتسلق إلى القمة حيث أجلس ، كانت معه البندقية التى منحته أياها ، وجلس بقربى وقد أخذ يعبث ببندقيته .

واستسلمت للتأمل فترة ، بعد أن ودعنى (ابن قبينه) ليأخذ قسطه من النوم ، استعرضت الرحلة التى قام بها توماس ، لقد كان ذلك عملا ضخماً لايقل فى أهميته عن عمل كل من أموندس وسكوت اللذين اكتشفا القطب الجنوبى ، لقد برهن توماس على أنه ليس من المستحيل عبور هذه الصحراء .

حقا لقد كان الطريق الذى سلكه « فيلبى » أكثر وعورة ولكن يجب ألا ننسى فى الوقت ذاته أن « فيلبى » كان يجد المساعدة التامة من الملك عبد العزيز بن سعود ومن ابن جلوى حاكم الاحساء ، مما سهل له مشكلة المرور عبر مقاطعة عرب « المره » الاشداء المعروفين بتعصبهم الدينى ، أما « توماس » فلم يكن له من يساعده

أو شكت الشمس على المغيب ، « وابن قبينة » لايزال نائما ، وما أن لمسته بيدى حتى هب قائما وخنجره بيده كعادة الأعراب عندما يوقظون .

وقام « مسلم » يطهو عشاءنا ، الذى أصبح وجبتنا الوحيدة طوال اليوم. واجتمعنا للاكل . وغسلنا أيدينا لآخر مرة قبل وصولنا الى آبار «ضفارة» وجلست على الحصير وإذا بعقرب من العقـــارب الكبيرة ذات اللون الاخضر الفاتح تقفز أمامى . لقد كنت دائما أدعو ألا أطأ إحداها بقدمى عارية . فقد حدث لى وأنا فى الحبشة أن لبست سروالى وكان بداخله عقرب لسعنى ، فعرفت قسوة لسعة العقرب من يومها . .

وهبت رياح باردة عبر الصحراء محملة بذرات الرمال . وأوقدنا حطبا كى نصطلى من البرد ، .

وانهمك الجميع فى القيام بأعمال فردية . ثم تطرق الحديث الى الغزوات فى الصحراء ومنها الى موضوعات أخرى كالسحر والختان والأعراس . إلا أنهم لم يتحدثوا أبدا عن الجنس أو عن المرأة . ،

وإذا تكلم البدوى عن النساء ، كان كلامه حيويا وصريحا ، ولكنه غير بذىء . كذلك كان سبابهم مباشر ولا يعدو أن يقول أحدهم للآخر « لعنك الله » ، « ليخرب الله بيتك » ، « ليأخذك اللصوص » ولايستعمل البدوى السباب القاذع كالعربى ساكن المدن . وقلما تحدثنا عن الجنس فالرجال الجوعى يحلمون بالطعام لا بالمرأة . .

ويندر أن يظهر الشذوذ الجنسى بين البدو رغم وجوده فى المدن ، ورغم

بعد البدو عن نسائهم الأشهر الطوال ، وهذا ما أوضحه « لورنس » فى كتاب « أعمدة الحكمة السبعة » عندما أثبت أن الذين ظهر عندهم الشذوذ الجنسى فى الصحراء ، لم يكونوا بدوا بل كانوا قرويين من سكان الواحات كذلك يؤكد الجنرال « جلوب » أن الشذوذ الجنسى يكاد يكون مجهولا لدى. البدو وأنى شخصيا لأؤكد أنى لم أر مايدل على وجود هذه الوصمة بين قبائل البدو . .

وأشرقت شمس اليوم التالى فسقينا أبلنا . ولما كان بعضها قد ارتوى من مياه « ظفار » النقية ، فقد امتنع عن الشرب من ماء العين ، حتى بعد أن أغلقنا منخاره ، حتى لقد اضطررنا الى سكب الماء بالقوة فى أفواهها. وسرنا بعد صلاة الظهر . وقد آثرنا المشى وقيادة الابل اكتفاء بحمولة الابل لجلود المياه التى كانت تثقل ظهورها . .

وفى التاسع والعشرين من شهر أكتوبر ، سرنا شمالا فى اتجاه « رملة الفافة » مؤملين أن نجد « بيت موسان » كى نستبدل إبلنا الضعيفة المهزولة . ووصلنا الى مكان قررنا البقاء فيه فترة ، ولم يكن به شىء مما تأكله الابل . .

وكانت فترة حرجة . ورغم ذلك فقد شاهدت « سالم بن تركى » وهو يستعمل الماء للوضوء ، فاحتججت لندرة الماء ، وصحت فيه أن يتيمم بالرمل . ولكنه رد على قائلا « الصلاة أفضل » . .

ووجدنا القليل من العشب الجاف بعد ظهر اليوم التالى على جانب ربوة فتركنا الابل ترعى ، وتابعنا سيرنا حتى جن الليل . كان الجو قارس البرد وقد استيقظت مرتين أثناء نومى ، فكنت أجد « سلطان » جالساً قرب النار وقد اعتمد رأسه بين كفيه مفكرا . وسرنا فى اليوم التالى مسافة طويلة

دون توقف . » ومن حسن حظنا أن شاهدنا آثارا لبيت موسان مما شجعنا على تعقبهم » .

وطلع نهار اليوم التالى وأشرقت شمسه فاستأنفنا المسير . وقد اخترت « بن عوف » لمرافقتى فقد ظل « سلطان » على اكتئابه وعزوفه عن الحديث . وكان « ابن عوف » يقود ناقته الشرسة نوعا ، مترقبا أى حركة مفاجئة منها ، وهو ثابت فوقها ، رابط الجأش ، يعطى خير المثل لشعب لا يأبه للصعاب . .

وسألت ابن عوف عن مطر بلاده ، أصيفى هو أم شتوى . فأجاب بأن حالة المطر قد تغيرت فيما يبدو له منذ صباه . فهو يـــذكر أن السماء كـانت تمطرهم صيفا . أما الآن فأنهم يتوقعون المطر فى الشتاء رغم عدم سقوط الكثير منه فى أى فصل من فصول السنة . والمشكلة التى يواجهها سكان الصحراء أن المطر عندما ينزل لا تتعدى دائرة أنهياره أماكن محدودة ، ولذا تظل كثير من الجهات محرومة من المرعى . .

وعلمت من « ابن عوف » أن مطراً غزيراً لمدة يوم كامل ، يكفى لبقاء العشب أخضر لمدة ثلاث سنوات أو أربع ، حتى ولو لم ينزل مطر بعد ذلك . ولكن هذا بطبيعة الأمر يتوقف على نوع الرمال التى يهطل عليها المطر . فالرمال عندهم ذات نوعين ، رمال حمراء ، ورمال بيضاء . والرمال الحمراء تنتج مرعى أفضل ، ورمال الدقاقة أفضل أنواع الرمال . .

والبدو يحبون مطر الشتاء عن مطر الصيف ، لأن الأول يبقى فى العادة مدة أطول . .

وسألت « ابن عوف » عن « بيت موسان » ، وكم من الزمن يستطيعون

العيش فى هذه الأصقاع دون ماء ، فأجابنى بأن ذلك يتوقف على طبيعة المرعى . فإذا كان جيدا استطاعوا البقاء من آخر فصل الخريف حتى فصل الربيع . فإذا ما أصبح الطقس صائفا ، رحلوا الى مكان قريب من العيون أو الآبار. وأخبرنى الرجل أن هؤلاء القوم يعيشون على لبن الإبل،فهو طعامهم وشرابهم . ولما سألته . . ألا تشعر الأبل بالعطش أبدا ؟ أجاب بأن الناقة إذا تركت عطشى فى مرعى مخضوضر ، فإنها لاتروى ظمأها فحسب ، بل تكتنز لحما وشحما ، بل إن بعض الإبل تصل به السمنة درجة ينشق فيها سنامها فتموت . .

والبدو يتعرفون على مواطن الرعى عن طريق إرسال الكشافة للبحث . وهؤلاء الكشافة يختارون من بين الرجال الأقوياء الذين اعتادوا الصبر واجتياز الفيافى . وإبلهم من خير الفصائل . ولهم دراية وخبرة بدروب الصحراء ومسالكها . .

والإبل تتحمل العطش فى الوديان مدة أطول . وحياة الصيف أشق على البدوى إذ يضطر الى الأقامة فى جوار آبار المياه المرة التى تصل مرارتها أحيانا إلى حد مزجها بالحليب كى يمكنه استساغتها وشربها . وفى بعض الأحيان تخصص لشرب الأبل دون أصحابها ، ويضطر البدوى الى رش جسمه بهذه المياه كى يبترد ، وتكون النتيجة أن يصاب بالقروح وتغطى جسمه البثور .

إن حياة البدوى قاسية ولكنه يتحملها فى صبر وجلد عجيبين . .

ومررنا بتلال حمراء كبيرة متقاربة ، وكان هناك مرعى فقد سقطت أمطار على هذا الموقع من سنتين . وشاهدنا أبلا لبيت موسان، وأحد الرعاة

الصغار يحرسها . .

وتطوع «سلطان» و«مسلم» وبعض الرفاق بالذهاب مع الراعى الصغير الى حيث يقيم آل « بيت موسان » . وظل العوف يرعى الأبل ، بينما استرخى الآخرون للراحة ، وقد غطوا وجوههم . أما أنا فقد تسلقت ربوة فوق مخيمنا ، وانضم الى « ابن قبينة » . كنت جوعانا فأكلت بعض الخبز الذى لوثه التراب ، ثم أخذت أتأمل الطبيعة من حولى .

كانت السماء أشد زرقة مما عهدتها . وكانت الرمال أشبه ما يكون بالبساط يمتد تحت قدمى . وفجأة نعب غراب وقد أخذ يطير حولنا . فصاح « ابن قبينة » . . . ياغراب ، الحق أخاك . . ثم طار غراب آخر فضحك « ابن قبينة » وقال . . إن غرابا واحدا يحمل النحس ، أما غرابان فلا . .

وجلست معه ، وأنا أشعر بسعادة غامرة . وتحدثنا سويا . وأخذ يعلمنى أسماء نباتات الصحراء . فهذه تسمى زهرة وتلك التى تنبت فى الرمال الصلبة فى المنخفضات تدعى « رمرام » وهكذا . . ومن العجيب أن علماء النباتات فى متحف لندن أرادوا تصنيف نباتات الصحراء ؛ فعددت لهم الأسماء التى علمنيها « ابن قبينة » . وقد ظنوا أول الأمر ، أنها كلها أسماء لمسمى واحد ، ولكنهم بعد الفحص الدقيق تبينوا أن « ابن قبينة » كان مصيبا . .

وانتهى « ابن قبينة » من درسه الذى أعطانيه فى علم النبات، وبدأ يحدثنى عن نفسه وعن أسرته وعاد « سلطان » ومعه بقية من صحابه . وقال « ابن قبينه . . إن « سلطان » سيجلب عليك المشاكل ، فهو خائف يخشى الطريق، وكنت أعلم أنه على صواب . وطلبت الى « ابن قبينة » أن يستدعى لى

العوف . ودعانى « سلطان » الى الانضمام اليهم فقد ناقش ورفاقه الموقف .
واتفق رأيهم على أن إبل « بيت موسان » لا يرجى منها خير ولن تستطيع
الوصول الى « ضفارة » ولهذا تتحتم العودة . خاصة وأن طعامنا كاد أن
ينفد ، وكذلك الماء ، وأراد « سلطـــان » أن يثبط عزيمتى فقـــال إن
« بيت موسان » أنبـــأوه أن فريقا من البدو ، معهم إبلهم القوية وكميات
من الماء وفيرة ، أرادوا الوصول إلى « ضفارة » منـــذ سنتين ولـــكنهم
ماتوا جميعا فى الصحراء . وناقشته مدة طويلة ولكن دون جدوى. لقد فقد حماسته
للرحلة . لقد كـان « سلطـــان » دائما القائد المطواع الذى اشتهر بشجاعته
وجرأته ، وهى صفات لها وزنها عند البدو . إلا أنه قضى حياته فى الجبال ،
وعلى المدارج ، لا فى الصحراء ، التى كـان يضطرب ويمتلكه الخوف ويفقد
الثقة فى نفسه إذا ماد خلها ..

وبدا فى موقفه أمامى ، هرما ، محطم النفس ، فأشفقت عليه . لقد أحببته
لقاء ما بذل لى من مساعدة ، وسألت العوف ما إذا كان سيأتى معى ،
فوافق على الفور مبديا أستعداده ، ليقوم لى مقام الدليل . وسألت «ابن تبينة»
فأجاب بأنـــه سيتبعنى حيث أذهب . كذلك كـان رأى « مسلم » الذى
كان يغار من « سلطان » ..

وقسمت الطعام فيما بيننا ، فأخذ كل منا خمسين كيلو جراما من الدقيق
وبعض الزبد والبن وكذلك ما تبقى من الشاى والسكر والبصل المجفف ،
وأخذنا معنا أربعة جلود ماء . وقد اخترناها من تلك التى لا ترشح . وعلمت
من « مسلم » أن « بيت موســـان » يملكون جملا ذكرا فى حالة جيدة ؛
على شراء ، كما اقترح على شراءه كما اقترح اصطحاب « منجوت بن عربان »
فهو صديقـــه فوافقت ..

وفى المساء ، سألت « ابن تركى » هل سيأتى معنا فأبدى استعـــدادا ، خاصة وأن « مبخوت » من بنى قرابته . ولـكـــن جمله كان فى غاية الهزال مما دعانا الى رفض اصطحابه معنا ، ولـكننى وعدته أن آخذه الى « المـكلا » هو وابنه الصغير ، عندما أسافر اليها من « سلالة » وذلك عند عودتى من رحلتى الحالية . .

واشترينا جمل « بيت موسان » بعد مساومة طويلة وبثمن خيالى . وشعرت بالثقة والاطمئنان أكـثر من أى وقت مضى . فقد أصبح معى زملاء من صفوة القوم ، وأبلا من خير الأنوع ولو أن طعامنا نفد ، فأن باستطاعتنا ذبح أحد الجمال وأكله . ولـكن الماء كان شحيحا فعلينا الاقتصاد فيه ما أمكن . .

أهديت زملائى بنادق وذخيرة وقد سرهم ذلك كـثيرا . فالبدو يحبون البنادق والخناجر فى زمن السلم . وتلك دلالة على رجولتهم واستقلالهم . .

وما أن آذنت شمس ذلك اليوم بالمغيب حتى وفد علينا بعض آ ل « بيت موسان » يحملون كؤوسا من حليب الأبل ، كان منعشا ومرطبا ، وخاصة ، عقب الماء المر الذى أحرق أمعاءنا . .

وجلست مع بعض أفراد « بيت كـثير » ثم ذهبت الى حيث كان العوف وابن قبينة » يصلحان سرجا ، ولاشك فى أننى كـنت أعتزم العودة من حيث أتيت ، كما فعل « توماس » قبلى عندما عاد من « مقشن » لولا أن وافق هذان البدويان على الرحيل معى . . .

الباب السابع

(على أديم الربع الخالى)

ودعنا رفاقنا من « بيت كثير » الذين فضلوا العودة ، بعد أن قاموا بمساعدتنا على تحميل الأبل . وحملنا بنادقنا وسرنا ، يتقدمنا « آل رشيد » ، وقد انسجمت ألوان ثيابهم الباهتة مع لون الرمال . .

وبعد مسيرة قصيرة أعلن « العوف » أن من الحكمة التوقف عند « بيت عمانى » بغيه إعطاء الأبل فرصة الرعى ليوم آخر . وأردف « العوف » يقول إن الأعراب سيقدمون لنا الحليب ، فلن نمس زادنا أو ماءنا . فكان ردى عليه أنه قد أصبح منذ الساعة دليل الرحلة ومرشدها . .

ومر بنا صبى صغير ، يلبس بقية من رداء ، وقد تهدل شعره الطويل على ظهره . وكان يرعى أبلا . وقادنا الصبى الى « بيت عمانى » حيث شاهدنا رجالا ثلاثة قد التفوا حول نار ، ما أن رأونا حتى هبوا مرحبين . وتبادلنا الأخبار وقدم الرجال لنا كؤوس الحليب . إن « بيت عمانى » ينتمون الى نفس البطن الذى تنتمى اليه قبيلة « آل رشيد » وينتمى اليه العوف « وابن قبينة » . وهم يتألفون من أسر ثلاث ، على رأسها شيخ يدعى « خويطم » ولم تكن لهم خيمة ، بل كان جل ما يملكون سروجا وحبالا

وجلود ماء فارغة وبنادق وخناجر . ورجال هذا البطن مرحون كثيرو الكلام . ولاريب ، فالمرعى جيد ، والأبل أكثرها حلوب ، والحياة عندهم ، هذا العام ، هينة سهلة . وفكرت فى السنوات الأخرى التى قاسى منها هؤلاء القوم .. فكرت فى الوقت الذى يزوى فيه العشب، وتقفر فيه الصحراء، فيهلك الناس وينفق الحيوان.. فكرت فى الآبار المرة عندما تصل درجة الحرارة الى الغليان فى فصل الصيف عندما يروون الأبل العطشى ساعة فساعة الى أن تجف البئر ، فتصبح الأبل بالأنين شوقا الى الماء فكرت فى قسوة الحياة على هؤلاء البدو.. كما فكرت فى قوة ارادة هؤلاء ، وجميل صبرهم على المتاعب. لقد استمعت الى حديثهم، وهدشات حركات مجاملتهم الغريزية لنا ، فخرجت من هذا بأنى إنسان فاشل ،إنانى، إذا ماقورنت بهؤلاء الأناسى . . .

وتحدث أفراد « بيت عمانى » عن « محسن » ، والحادث الذى وقع له . وكثرت أسئلتهم عنه . ثم نادى « خويطم » ابنه الراعى الصغير ، وأمره بإحضار نوق القطيع. وغسل « خويطم » يديه تحت ناقة عجوز، فالعرب يعتقدون أن ثدى الناقة يجف فيه اللبن أذا ما استخدمت أيد قذرة فى حلبه، أو استعمل وعاء غير نظيف فى احتوائه . وربت الشيخ على جذع الناقة ، وأخذ يتحدث اليها ، ويهيب بها أن تدر الحليب . وفعلا أعطت الناقة قرابة اللترين من اللبن.

وقدم « بيت عنانى » الينا الحليب ، وألحفوا فى حملنا على شرب الكثير منه قائلين..أنكم لن تجدوا منه فى الصحراء الممتدة أمامكم ، فاشربوا ثم أشربوا أنتم ضيوف علينا وقد أرسلكم الله الينا . . فاشربوا . وشربت وأنا على ثقة من أن « بيت عمانى » سيبيتون الليله ظماء ، فليس لديهم ماء ولاطعام سوى الحليب وقد شربناه . وضع لنا « ابن قبينة » القهوة . فجلسنا حول النار نصطلى ، و نتحدث . .

وفى الصباح ، ذهب « إبن قبينة » مع أحد أفراد « بيت عمانى » لأحضار الأبل . وقد لاحظت ، بعد عودته ، أنه قد تعرى عن ردائه الذى كان يستر به جسده . ولما سألته عنه ، أنبأنى أنه منحه لأنسان . وصحت فيه أن يسترده ، فليس من المعقول أن يسير عاريا عبر البلاد المأهولة وراء الصحراء وفى عمان . واقترحت عليه أن يمنح الرجل مالا بدلا من الثوب . ولكنه أجاب بأن ليس فى أمكانه أجابة طلبى فما فائدة المال لرجل فى الصحراء . الرداء خير وأبقى . .

وكان « بيت عمانى » قد أحضروا لنا كاسات الحليب ، فأخذ العوف يصبها فى جلد ماعز صغير قائلا إنه سيمزج قليلا منه كل يوم بماء الشرب كى يتحسن طعم الماء ، كما يفعل الأعراب دائما . وهذا المزيج يطلق عليه البدو اسم « شنين » . .

ودعنا مضيفنا « خويطم » ، وتمنينا له السعادة ورعاية الله ، ثم اتجهنا صوب الصحراء ورفع العوف يديه ، وأخذ يتلو آيات من كتاب الله . كانت الرمال شديدة البرودة تحت أقدامنا . ولم نكن نملك تلك الجوارب التى يلبسها الأعراب فى الشتاء . والمصنوعة من الشعر الأسود الخشن . فتشققت أعقاب أرجلنا . .

توقفنا عند أحد المراعى ، وأخترنا كهفا نحتمى فيه من الرياح ، وتركنا الأبل ترعى . وعند الغروب ، قدم لنا العوف الماء الممزوج بالحليب . .

كنت سعيدا بصحبة هؤلاء القوم . وعلى الرغم من أن طبيعة الحياة فى الصحراء قد ساوت بينى وبينهم ، إلا أن الفارق ظل شاسعا . كانوا بدوا وأنا

أوربى كانوا مسلمين وكنت مسيحيا . ولكنى كنت زميلهم ؛ تربطنى وأياهم رابطة قوية ، عراها لاتنفصم . . رابطة مقدسة كتلك التى تربط المضيف . بالضيف . وإن شئت فقل رابطة العصبية القبلية ، أنا زميلهم على الطريق ، فلى عليهم حق الحماية ضد كل خطر ، وضد كل أنسان حتى ولو كان أخا لهم وكنت أعلم أن أقسى امتحان لى هو أن أنسجم معهم فى حياتهم ،فلا ممارسة سيطرة ، ولا انتقاد لما شبوا عليه من مثل وطرق المعيشة ، وأخيرا ، ولا أنطواء على النفس يباعد بينى وبينهم . .

وبزغ نور الفجر وأسرعنا فى السير حتى أتينا أرض مرعى ، أحياها هطول المطر أخيرا . وقررنا التوقف . ونصحنا العوف أن نجمع حزمات من نبات « الزهرة » ، وأن نحملها معنا . وراقبته وقد أخذ يحفر حفرة فى الرمل ليتأكد من مدى ماوصل اليه المطر من عمق ، فوجده قرابه ثلاثة أقدام . « العوف » القيام بمثل هذه الأبحاث . أثناء سيرنا . وكان من الصعب علينا وقد اعتاد أدراك جدوى ما يفعل. إلى أن تأكدت أن هذه المعرفة جعلت منه دليلا لا يبارى .

وتناقش العوف ومسلم حول المسافة بين « مقشن » و « باى » حيث كان « الطمطائم » ورفاقه ينتظروننا . وسألت العوف ما إذا كان قد سافر من وادى « العميرى » الى « باى » من قبل . فأجاب بأن ذلك منذ حدث منذ ست سنوات .

وتوقفنا عند الغروب لتناول العشاء وإطعام الأبل نبات الزهرة الذى جلبناه معنا وقد هالنا أن جلود الماء ترشح . فكان كل قطرة تتساقط نقطة دم تنزف من جرح . وكان علينا أن نسرع . ولكن هذا معناه أنهاك الابل . خاصه بعد أن بدت عليها أمارات الظمأ . وقررت العوف أن نستأنف

السير بعد العشـــاء ..

وفى أثناء انهماك « مسلم » « وابن قبينة » فى صنع الخبز ، أخذت أسائل العوف عن رحلاته السابقة عبر هذه الصحراء . فأجاب بأنه اجتازها مرتين ، وأنه سار على نفس الطريق فى مرته الثانية ، ولما سألته عن رافقة أجاب بأن الله وحده كان معه ..

وإذ هالتنى إجابته . فمن العسير على المرء أن يصدق أن إنسانا يستطيع السفر وحيدا فى مثل هذه القفار الموحشة . نعم نجتازها الآن . ولكننا جماعة . جماعة تمثل عالما صغيرا ، يتعاون بالحديث والضحك . وكنت على ثقة بأننى لو فرض وقمت بهذه الرحلة وحدى لقضت على قسوة الوحدة ..

لقد استعمل العوف فى أجابته تعبيرا لغويا عندما قال ، إن الله وحده كان معه فالله سبحانه وتعالى حقيقة واضحة عند هؤلاء البدو ، والأيمان به يمنحهم الشجاعة ويلهمهم قوة الاحتمال والصبر كما أن الشك فى وجوده أمر لايقبله العقل ، وأنه الكفر بعينه ..

والغالبية العظمى من البدو متدينون ، يقيمون الصلاة بانتظـــام ، ويصومون شهر رمضان من طلوع الفجر الى غروب الشمس كل يوم . وفى قيظ الصيف ، يستفيد هؤلاء المؤمنون من رخصة الأفطار فى رمضان . ويصومون ما أفطروه فى أيام أخر ..

وانتهينا من الطعام ، وركبنا لمدة ساعتين عبر سهل رملى جاف . وبدأت أرتجف بردا . وخيم عـــلى الجميع هـــدوء كان يقطعه صوت تفتت

الرمال الجافة تحت أرجل النوق . .

كنت أعتقد أن بدو الجنوب يختلفون كثيراً عن بدو الشمال . ولكننى تأكدت أن الاختلاف سطحى ؛ لايتعدى نوع الثياب التى يرتديها كل فريق . .

وتوقفنا ، ونزلت عن جملى فى تراخ . كنت تواقاالاحتساءشراب ساخن ولكن كان على أن أنتظر ثمانى عشرة ساعة على الأقل قبل أن أستطيع ذلك . وأشعلنا نارا للتدفئة قبل النوم . ولكن النوم لم يطرق جفنى فقد كنت منهوك القوى . وماكنت أشكو جوعا . مع أن الطعام الذى تناولته ماكان ليسد الرمق . إن مايؤرقنى هو الظمأ . كنت أحس به دائما حتى أثناء نومى . وسألت العوف عن المسافة ، بيننا وبين اقرب بئر فأجاب إن المسألة ليست بعد المسافة، ولكنهاقسوةاجتياز تلال «عروق الشائبة» وتذكرت الماء الذى كان يتساقط من الجلود على الرمل . واعترانى القلق على الأبل التى كانت تسير من خلفنا فى الظلام . .

ونادانى مبخوت « ماذا بك يامبارك ؟ » فغمت بكلمات غير مفهومة وعدت الى الاسترخاء من جديد . .

وانبثق نور فجر جديد . وأفاق الصحب ، وبدأنا نستعد للمسير فى هذا الجو القارس . واشتمت الأبل رائحة الزهور الذابلة وهمت بأكلها . ولكن ظمأها الشديد حال وبين ذلك . .

وسرنا فى هدوء . وأخذت عيناى تدمعان من شدة البرد . وامتدت سلاسل التلال الرملية أمامنا . ونزل العوف يستكشف المكان . وأخذ

يتفحص التلال . كان مظهره يدل على الجرأة التى لاحد لها . .

وجلست أرتقب عودة العوف . ورأيته على بعد نصف ميل يعدو عند أسفل أحد التلال . ثم شاهدته يتسلق مرتفعا كمن يتسلق جبلا ؛ وتساءلت بينى وبين نفسى ترى ماذا نفعل إذا مالم تستطع الأبل تسلقها. كنت أعلم أننا لن نستطيع الاتجاه نحو الشرق . فقد أنبانى العوف أن صحراء أم السموم جد خطيرة وهى تقع فى تلك الجهة . أما الجهة الغربية ففيها توجد صحراء الدقاقة التى عبرها توماس فى رحلته . ولم يكن أمامنا متسع من الوقت للاختيار .

فمياهنا قد أوشكت على النفاد . وحاجة الابل اليها أقوى من حاجتنا ، والا هلكت . وعلى هذا فلابد لنا من اختيار هذه الطريق حتى لو اضطرنا الأمر الى حمل أثقال الجمال على اكتافنا .

وتذكرت سلطان ، ومن تركونا . وتصورت شماتتهم بنا لو أننا أخفقنا وشاهدت العوف وهو يعود ، ورفعت بصرى فإذا بابن قبينة واقفا يبتسم وهو يقول: السلام عليكم ثم جلس إلى جانبي. وسألت أبن قبينة هل ستجتاز الأبل هذه المرتفعات . فأطرق عليا ثم أدار بصره فى المرتفعات وأجاب . أن الأمر بالغ الصعوبة . ولكن العوف سيجد طريقه أنه من آل رشيد وليس من بيت كثير .

وعاد العوف ، والابتسامة تطل من وجهه . ولكنه ظل صامتا ، ولم يحاول أحدنا أن يسأله عن شىء ، لاحظ أن أحمال جملى غير متوازنة فعمل على موازنتها . ثم التقط عصاه التى سقطت منه بأصابع قدمه ، وتقدم إلى جمله فأمسك برسنه ثم صاح . هيا وأظهر من البراعة ما راعنا جميعا . فقد اختار

طريقه متجنبا مايصعب على الابل تسلقه من المرتفعات . وكان قائدا ماهرا استطاع أن يصل بنا إلى حافة المنحدرات حيث أصبح النزول سهلا بين وديان قليله العمق ، وتلال منخفضة مستديرة .

وانتصرنا . وأصبحنا على قمة .. عروق الشايبة . وأحسست بنشوة غامرة . فقد كانت هذه ثقلا يجثم على صدرى منذ أن حذرنى العوف منها ونحن فى صحراء غنيم .

واسترخينا على الرمال فى سكون تام ، إلى أن أمرنا العوف باستئناف المسير فامتطينا جمالنا وسرنا فى صمت ونحن نتمايل مع خطوات الابل .

وحلت ساعة الظهيرة ، فتوقفنا كى نريح الابل . وأعلن العوف أننا بسبيل استئناف السير عند الغروب . وقلت للعوف جذلان فرحا : لقد تغلبنا على أقسى عقبة باجتيازنا عروق الشايبة . فتفرس فى وجهى برهة ثم قال . إذا غذذنا السير ، فسنصلها غدا . فسألته : نصل ماذا ؟ أجاب : عروق الشايبة . ثم أضاف . أظننت أن ما اجتزناه اليوم كان عروق الشايبة لقد كانت مرتفعا بسيطا ، وسترى العروق فى الغد . وتوهمت أنه يمزح . ولكننى لم ألبث حتى تيقنت أنه كان جادا ، وأن أسوأ مرحلة فى الرحلة لازالت أمامنا ..

وتابعنا سيرنا إلى أن انتصف الليل . فقال العوف : لنتوقف هنا . سننام ونريح الابل فلم تعد عروق الشايبة بعيدة . وساورتنى الاحلام فى نومى بعروق الشايبة فتصورتها تقف فى شموخ أمامنا ، وكأنها أعلى من الهملايا .

استيقظنا ولازال الظلام ينشر أرديته على الكون . وصنع لنا ابن قبينة القهوة التى إن كانت قد أنعشتنا ، فإنها لم تدفئنا . وتحرك ركبنا . وكان الرمل

الخشن تحت قدمى باردا وكأنه الجليد .

وواجهتنا سلسلة عالية نوعا من التلال ، أعلى من التى مررنا بها فى اليوم السابق . كانت قممها أكثر ارتفاعا وبروزا . وكانت الرمال ناعمة جدا حتى أن أقدامنا كانت تغوص فيها ونحن نكافح فى سبيل الصعود . وتذكرت كيف كانت الابل فى بلاد (الدناقل) تنهار فجأة بسبب ارتقاء مثل هذه المرتفعات وتطلعت إلى الابل فاذا بها ترتجف بردا . فهذه ناقة أبت أن تسير ونحن نحاول ما استطعنا أن نحملها على السير . وأخرى رفض أن تنهض فكان علينا أن ننزل عنها حملها . وما أصبحت الأحمال بالثقيلة بعد أن نفد معظم طعامنا وشرابنا .

وقضينا وقتا طويلا فى قيادة الابل المترددة فى الصعود والتى ترتعش من شدة البرد . وكان عملا شاقا . ولكن البدو مرنوا على الصبر وقوة الاحتمال . وزادت دقات قلبى ، واشتد بى الظمأ . وأصبح من العسير على أن أزدرد لعابى . وشعرت وكأن أذنى قد صمتا . وكنت أقف لاستجم فاستمع إلى أصوات الآخرين وقد بحت وهم ينادوننى : أسرع ، أسرع ، يامبارك .

وعبرنا سلسلة التلال فى ساعات ثلاث . وكانت هناك سلاسل وسلاسل . . . وتطلعت حولى ، باحثا عن منفذ ، ولكن أين المهرب . . . إننى لا أكاد أرى على البعد إلا رمال الصحراء وقد التقت بأسباب السماء وعلى طول هذه القفار اللانهائية لايكاد المرء يرى حياة ، تبعث فى نفسه الأمل . حتى أيقنت أننا لا محالة هلكى .

ونزلنا الوادى ولست أدرى كيف . ثم صعدنا الى الجانب الآخر حيث

تهاوينا على الارض من شدة مابنا من تعب . ومنح العوف كلا منا قطرات من الماء يبلل بها فمه . ومرت ساعتان فقمنا ، إستعدادا لموالاة السير وأخذ العوف يساعدنى فى وضع الاحمال على جملى . وهنا قال لى فى زهو « أبشر يامبارك . فقد عبرنا هذه المرة ، عروق الشايبة حقا » فأشرت إلى التلال أمامنا . فقال . بوسعى أن أجد طريقا آخر دون أن نضطر لعبور هذه التلال .

وامتد بنا المسير حتى الغروب ، ونحن نجتاز الوديان ، ونتحاشى التلال فما كان بوسعنا أن نتسلق مرتفعا . وتوقفنا عند منتصف الليل ، ثم تابعنا سيرنا مرة أخرى فى الفجر ، ونحن لا نكاد نقوى على السير بعد مرحلة الامس .

ووصلنا إلى مرتفعات من الرمل الذهبي والفضى بعد أربع ساعات ولم نجد شيئا تتغذى عليه أبلنا ، وفجأة قفز أرنب ، بادره العوف بضربة من عصاه ، فقتله وفرح الجمع فقد مضت أيام ولا حديث لنا إلا عن الطعام وقد أحتفلنا بانتصارنا على عروق الشايبة بطهو الارنب وصنع حساء منه . وقسم لحم الارنب خمسة أقسام ، وأخذ كل منا نصيبه . واختصونى بالكبد علاوة على نصيبى ، وقد حاولت ان أثنيهم عن تفضيلى ولكنهم أبوا .

وأوشك ماؤنا على النفاد . ولم يعد لدينا إلا القليل من الدقيق لا يكاد يكفى لاسبوع آخر . وبلغ العطش بالابل حدا جعلها ترفض أكل الحشائش اليابسة التى كنا نمر بها . وكان لزاما أن نرويها فى اليوم التالى وإلا هلكت . وبشرنا العوف بأننا سنصل إلى بئر (خبا) فى ضفارة بعد ثلاثة أيام . وأن هناك بئرا صالحة ليست بالبعيدة .

واستيقظنا مبكرين فى اليوم التالى . وسرنا دون توقف مدة سبع ساعات عبر السهول المنبسطة . وكان لون رمال هذه السهول زاهيا ، متعدد الالوان ففى بعض جهاتها يكون لونه كلون البن ، وفى أماكن أخرى يكون بلون القرميد الأحمر ، وفى ثالثه يكون لونه أخضر ذهبى .

واسترحنا قرابة ساعتين على الرمال الحمراء ، ثم أستأنفنا سيرنا . وطلع علينا أعرابى من خلف شجرة على قمة مرتفع ، وقد بدأ عليه التردد . كانت بنادقنا على إبلنا ، فما كنا نتوقع رؤية أحد . وسحب مسلم بندقيتى ، وكانت معه ، فى هدوء ولكن العوف أوقفه قائلا .. إن هذا الصوت من آل رشيد وتقدم العوف من القادم وما لبثا أن تعانقا . وانضممنا إليهما . وقال العوف مشيراً إلى الرجل هذا (حمد بن هنا) شيخ من شيوخ بنى رشيد . كان الرجل قوى البنيان كث اللحية ، متوسط العمر . وكانت عيناه ضيقتين وله أنف طـــويل .

وقدمنا له القهوة ، واستمعنا إلى أخباره ومنه عرفنا أنه كان يبحث عن جمل ضائع وأنه ظننا غزاة من الجنوب .

وكنا نتجنب ، ما أمكن الاحتكاك بغير بدو بنى رشيد . فلم أكن أريد أن أقع فى قبضة جباة ابن سعود ليأخذونى ، بدورهم ، إلى ابن جلوى حاكم الأحساء الرهيب كى أشرح له سبب وجودى فى هذه الأصقاع .

كان آل كرب من حضر موت قد غزوا هذه الارجاء فى العام السابق ويخشى أن يعتبرنا القوم هنا من الغزاة ، اذ أن مواقع أخفاف أبلنا تدل على أننا جئنا من الجنوب وربما ازداد هذا الخطر إذا عرف البدو أننا كنا نتجنب

الاحتكاك بالاعراب فى سفرنا فالرحالة الشرفاء لايمرون بمخيم بدوى دون أن يتوقفوا ويطلبوا الطعام ويتبادلوا الاخبار.

ووجدت من الضرورى التوقف لإرواء الإبل ، وجلب الماء اللازم لنا .ولكن توقفنا على مقربة من (لوى) ولنبعث بأحدنا الى القرى المجاورة ليبتاع طعاما يكفينا شهرا آخر . وعلمت من حمد أن (لوى) تحت آل بوفلاح وأبو ظبي . وأنهم فى حرب مـــع سعيد بن مكتوم من (دبى) وعرفت منه أن الاعراب سيكونون على حذر بسبب هذه الحرب..

وتابعنا سيرنا بعد الظهر واستمر سيرنا حتى الغروب . وجاء معنا حمد الذى وعد بملازمتنا حتى نحصل على طعام من (لوى) كما وعد بمساعدتنا فهو يعرف جيدا مخيمات الاعراب كى نتجنبهم .

وفى اليوم التالى ، وبعد ساعات سبع من السفر بلغنا (خور سبخة) على طرف صحراء ضفارة . ووجدنا بئرا ماؤه ملح رفضت الإبل شربه حتى بعد سد أنوفها .

وقال العوف إن الاعراب أنفسهم ، يشربون هذا الماء ممزوجا بالحليب ولما أظهرت له عدم تصديق ، أضاف أن الاعرابى اذا استبد به الظمأ ، عهد الى جمله فذبحه ثم شرب السائل الذى بمعدته . وقد يضطر أحيانا الى وضع قضيب فى حلقه ويشرب القيء.

وعند ظهر اليوم التالى وصلنا (ضفارة) ولم تعد بئر (خبا) بعيدة عنا. كان ماؤها على درجة طفيفة من الملوحة ولكنه كان خيراً من ماء أمس على أية حال .

واحتفلنا بمناسبة انتصارنا على الربع الخالى . فأكلنا وشربنا بسخاء . وذهبت لانام . وكنت جد سعيد . كيف لا وقد عبرنا الربع الخالى سالمين .

لقد كان الربع الخالى هو مصدر تحدى الصحراء للمستكشفين . وها هو ذا قد أصبح فى متناول يدى . وتذكرت كيف عرض على (لين) السفر الى هذه البقاع . وما انتابنى من فترات خوف وقلق وحرمان ويأس .

وها أنذا قد عبرته ، قد تكون رحلتى هذه غير ذات أهمية عند الآخرين ولكنها كانت تجربة شخصية لى . وكانت مكافأتى عليها جرعة ماء نظيفة لا طعم لها . وإنى بها لقانع .

الباب الثامن

العودة الى سلالة

هكذا عبرنا الربع الخالى . فلنعد الى « سلالة » . ولكن طريق عودتنا يجب أن يتغير ، وليكن عبر عمان . كان من الصعب تخطيط هذا الطريق . لقد قدرت أن علينا أن نقطع قرابة الخمسمائة أو الستمائة ميل قبل أن ننضم الى « الطمطام » وبقية الرفاق الذين تركناهم على الساحل الجنوبى . ثم هناك مائتا ميل جديدة للوصول الى « سلالة » وسألت العوف عن الماء فأجاب بأن الماء لن يكون مبعثا لقلقنا فى العودة فهناك الكثير من الآبار على طول الطريق . أما الطعام فهو مصدر القلق الحقيقى . لم يكن قد تبقى لنا من الدقيق إلا حفنات . ورغم هذا ، فقد عاد « حمد » ومعه شخص آخر من « آل رشيد » أسمه « جديد » ومعنى ذلك وجود شخص آخر ، علينا أن نطعمه ، وطمأننا « حمد » بان باستطاعتنا شراء مانحتاجه من طعام فى « لوى » وأن ذلك لن يكون قبل ثلاثة أيام أو أربعة ، فصحت فى انزعاج .. إذن فسنجوع كالأبل حتى ذلك الوقت . . فتمتم العوف.. أجل. ولكن البشر لا يتحملون كما تتحمل الأبل .. وناقشه « مبخوت » و « مسلم » فى موضوع الطريق . فقال « حمد » إننا إذا سرنا الى الجنوب من « لوى » فسنكون بعيداً عن منطقة القتال . وأضاف أن قبائل الجنوب إما من « العوامر » أو « المناصير » أو « بنى إياس »

وهم جميعاً على وفاق مع « آل رشيد » . وأردف قائلا . . ولكن الأمر سيختلف عندما تصلون إلى « عمان » . فهناك « الدورو » أعداء « بنى رشيد » فعليكم أن تتيقظوا وتأخذوا حذركم متى أصبحتم بين ظهرانيهم فهم أهل غدر .

وأطرق « حمد » هنيهة ثم تطلع إلى وقال . . إن الخطر يكمن فى وجود « مبارك » ، « اسمى عندهم » . يجب ألا يعلم أحد من الأعراب بوجوده بينكم. فهو مسيحى وستنتشر أخبار وجوده فى طول البـــلاد وعرضها . فيسمع « جباة بن سعود » بأمره ، فيقبضون عليكم جميعـاً . حيث تقادون إلى « ابن جلوى » فى «الأحساء» ، وقانا الله شره . اننى أعرف هذا الرجل . إنه طاغية لايعرف قلبه الرحمـة أو الشفقة . ثم ان « الدورو » يجب ألا تصلهم أنبـاء « مبارك » . وإلا فلن نصل أبداً إلى عمان . والخـطة التى يجب أن تنفذ بحذافيرها إذا ما قابلنا أحد الأعراب هى أن نقـول بأننا من « آل رشيد » بحضر موت ، وإننا ذاهبون إلى « أبو ظبى » لنقاتل مع « آل بوفلاح » ، أما « مبارك » فإنه أعرابى من عدن .

ثم التفت « حمد » الى وقال . . لاتتكلم اذا ما قابلنا أحـد . رد التحية ولا تزد . ويجب أن تظل ممتطياً جملك طول الوقت ، حتى لايعثر أعرابى على آثار أقدامك المربعة ، فيتبعها ليعرف من أنت . . ونهض « حمد » إلى الجمال قائلا . . خير لنا أن نستأنف مسيرنا الآن .

وصلنا ثانيه الى بئر « خبا » . حيث أقمنا طويلا كى ترتوى الإبل . وملأ الرفاق جلود المـاء . ثم عدنا إلى انتظار الإبل . وقد لف زملائى أنفسهم بعباءاتهم . وأخفوا وجوههم بملفحاتهم حتى لم تعد تظهر منهم غير العيون .

ويعتقد البدو أن كثرة الثياب تصد الحرارة عنهـــم . ولـكن الواقع أن مايفعلون إنمـا هو منع العرق من التبخر . وهكذا فهم يوجدون طبقة باردة حول الجلد . ولم أستطع مجاراتهم فى هذا .

وفى اليوم التالى ، واجهتنا صعوبه تحاشى بعض الطفيليين من «العوامر» لقد اعتقدوا ، أول الأمر اننا لصوص ، فأعطوا اشارة الخطر . ولـكن « حمد » اتصل بهـم وانبأهم أننا نفر من « بنى رشيد » قاصدين « أبو ظبى » . فدعونا إلى مخيمهم وأقسموا ليذبحن لنا جزوراً . فقدم اليهم « حمد » عذرنا مما أثار شكوكهم فينا ، لولا قضاء « حمد » و « منجوت » و « العوف » الليلة معهم كى يطمئنوا الينا . وعاد هؤلاء الثلاثة فى الصباح وقـد أحضروا معهم جلدا مليئاً بالحليب .

بعد ثلاثة أيام من تركـنا « خبـا » وصلنا إلى « الباطن » وتوقفنا عند بئر « بلاغ » . وفى الصباح ذهب « حمد » و « جديد » و « ابن قبينة » إلى سوق « لوى » ليشتروا لنا الطعام .

أقنعت نفسى بضرورة تحمل الجوع . ووجـدت صعوبة فى حمل نفسى على ذلك أول الأمر . وغفوت قليلا ، ثم استيقظت على صوت جمل «يرغو» فظننت أن « حمداً » و « جديداً » و « ابن قبينة » قد عادوا . ولـكننى لم أر إلا « مبخوتاً » ينقل الإبل . وكـدنا نقطع الأمل فى عودة الثلاثة . ولـكنهم ما لبثوا أن عادوا ، وأمارات الفشل بادية على وجوههم . قال « ابن قبينة » . لم نستطع شراء شىء . فلاشىء فى «لوى» اللهم إلا بعض التمر الردىء والدقيق ولم يقبل القوم ما قدمنا اليهم من عملة . فالريالات لاقيمة لها عندهم ، بل

الرو بيات . كان التمر الذى جلبوه من صنف ردىء ووضعنا ثريداً من الدقيق أضفنا اليه قليلا من الملح ليعطيه نكهة خاصة . وقال « العوف » إذا استمر طعامنا على هذا الحال ، فإننا سنضعف ولن نقوى على امتطاء الإبل .

ومرت أيام ثلاثة على رفاقى كانت جحيما بالنسبة لهم . فلولا وجودى معهم لاستطاعوا الذهاب إلى أقرب خيمة وأكلوا فيها ...

لم يكن معنا من الطعام إلا ما يكفى لعشرة أيام مع القصد . وكان لابد من الحصول على طعام . واقترح « العوف » ذبح جمل لنأكل لحمه . ففكرت كيف أستطيع أن أعيش على لحم إبل مجفف طوال شهر كامل .

واقترح « حمد » أن نختبىء قرب « عبرى » فى وادى العين . ثم نرسل رسلا إلى المدينة يشترون لنا الطعام . وقد أنبأنى « حمد » أن « عبرى » من أكبر مدن « عمان » وأن بها كل ما نشاء ونحتاج . ولكن «مسلم» قاطعه قائلا . لايمكن أن نذهب إلى إحدى بلاد « الدورو » . لقد سمع « الدورو » عن زيارتى فى السنة الماضية « لمقشن » ، وحذروا « بيت كثير » من اصطحاب أى مسيحى إلى بلادهم . وسأله العوف فى صبر نافد . . وأين إذن ، يجب أن نذهب ؟ وبدأت مناقشة انضممت اليهما فيها . وذكرت « مسلم » باننا خططنا رحلتنا على أساس من العودة عبر بلاد « الدورو » . فالتفت نحوى ثائراً ، وضرب الأرض بعصاه ، ليزيد من أثر كلامه وصاح . . إننا لم نتفق أبداً على التوقف فى بلاد « الدورو » أو أن نمر بعبرى . فإن ذلك هو الجنون بعينه . ألا تعلم أن هناك « الرقيبشى » أحد ولاة الإمام ؟ .

ألم تسمع بالرقيشى من قبل ؟ ماذا تعتقدأنه سيفعل لو أنه سمع أن مسيحياً فى بلاده ؟ إنه أسوأ ولاة الامام .

وسأله العوف ما العمل ؟ فأجابه : لست أدرى والله ، ولكننى لاأنصح بالمرور قرب (عبرى) ، وسأل العوف ثانية : هل نعود إلى (سلالة) من نفس الطريق التى سلكناها فى المجىء ، وأضفت قائلا : إن ذلك سيكون بديعاً وخاصة بهذهالجمال المرهقة الجائعة ، فصرخ مسلم قائلا : ليس هذا بأسوأ من المرور بمدينة (عبرى) .

وتناقشنا طويلا فى هذه المسألة واستقر الرأى ، أخيراً ، على أن نبتاع الطعام من (عبرى) وأن نشترى جملا من آل رشيد ليكون بمثابة جمل إضافى نستطيع أن نتخذ منه طعاماً وقت الحاجة،واقترح حمدإخفاء شخصيتى واقترح مبخوت أن أتظاهر بأنى سيد من حضرموت فلن يصدق أحد أنى بدوى ، وعارضت هذه الفكرة ، خوفاً من الدخول فىمناقشات دينيةلاأفهم فيها شيئاً،كماأنهسينتظرونمنى أن أقيم الصلاة. . بل وربما جعلونى إماما لهم، وهنا تقع الواقعة ، وينكشف المستور ، وقررت أن أتظاهر بأننى مدنى من عدن عاش طويلا مع رجال القبائل ، وأننى فى طريقى إلى أبى ظبى ، فاذا ما وصلت إلى عمان زعمت أننى سورى أنى ابزور الرياض .

وقد لاحظت أثناء معاشرتى للبدو أن المناقشات يحمى وطيسها بسرعة بين هؤلاء القوم ، ولكن حدتها سرعان ماتخف ، ويجلس الجميع معاً فى صفاء تام يشربون القهوة ، إن البدو لايعرفون الحقد ولكنهم يغارون لشرفهم وكرامتهم ، فينتقمون .

لقد تطوع حمد لمرافقتنا حتى مدينة (عبرى) . وقبلنا عرضه فى غبطة فهو عليم بهذه الصحراء وتوزيع القبائل فيها ، وسرنا باتجاه الشرق وكنت أتلو صلاة قصيرة داعياً الله ألا نمر بأية خيام للأعراب.

وواجهتنا تلال تمتد من الغرب إلى الشرق على شكل سلاسل متوازية يبلغ ارتفاع أعلى قممها حوالى الثلثمائة قـــدم ، وبينها وديان واسعة حافلة بالشجيرات الخضراء .

ووصلنا صحراء (الرياض) ، ومررنا فى طريقنا باثنتى عشرة ناقة ترعاها أعرابية وولداها الصغيران ، وقال العوف : هيا بنا نشرب ، وذهبنا إلى العجوز وأقرأناها الســـلام فأعطته وعاء ذهب به إلى ناقة ليحلبها ولكن المرأة صرخت فى ولديها : أسرعا وأحضرا لهما الناقة بنت العامين ، ثم البرشاء ، ثم ذات الأعوام الستة ، أهلا بكم وسهلا ، أهلا بضيوفنا ، ودار علينا العوف بالوعاء فجلسنا القرفصاء لنشرب فالأعرابى لا يشرب وهو واقف ، وسألتنا العجوز إلى أين نحن ذاهبون ، ولما أجبناها أننا ذاهبون للقتال مع آل بوفلاح هتفت : لينصركم الله .

ومرة أخرى ، توقفنا عند مخيم لقبيلة المناصير ، وأصر حمد على أن ننزل عليهم وإلا أثرنا الشك فى نفوسهم ، بعد أن رأونا ، واقترحت عليهم أن يتركونى مع الإبل حتى يعودوا فوافقونى ، كنت أعلم أن رفاقى يريدون حليباً ، وكنت بدورى تواقا لجرعة منه ، ولكن كان من الخطر أن أجازف بحياتى فى سبيل الحصول على تلك الجرعة ، وعاد القوم ورأيت ابن قبينة يبتسم كلما تطلع إلى وجهى . فسألته ، ما الذى يضحكه فأجاب : لقد أعطانا المناصير حليباً . ولكنهم ألحوا فى طلبك فأخبرهم العوف أنك

عبد رقيق ولكنهم أصروا على دعوتك ، فالرقيق فى نظر البدو يحق له نفس معاملة أفراد الرحلة ما داموا على سفر . وأضاف ابن قبينة أن العوف أنباهم انك مخبول حتى كفوا عن الإلحاح ، فرد مبخوت قائلا : حقاً لقد كفوا عن الإلحاح ولكنهم حدجونا بنظرة كلها تعجب واستغراب .

وسرنا فى الصباح وهبطنا منحدراً ، وفجأة طرق سمعى طنين منخفض أخذ يزداد قوة حتى أضحى كأزيز طائرة ، واندفعت الإبل مذعورة وتفرقت ثم توقف الصوت عندما وصلنا إلى قاع المنحدر . إن البدو يطلقون على هذا الصوت « غناء الرمال » ويصفونه بالزئير ، وهو ينتج فى اعتقادى عن انهيار طبقة من الرمل على وجه أخرى .

وطال السير بعد الظهر حتى وصلنا إلى بعض التلال الصغيرة المتلاصقة وهى التى اشتقت منها مدينة (الرياض) اسمها ، كان هناك مرعى كاف فقررنا أن نأكل ما بقى معنا من الدقيق ، وكان مسلم قد اصطاد لنا أرنباً فجلسنا على هيئة دائرة حول ابن قبينة وهو يطهو الأرنب ، وكل دقيقة تمر بنا تزيد من شوقنا إلى اللحم الذى لم نذق له طعماً من شهر أو أكثر ، باستثناء الأرنب الذى قتله العوف بالقرب من عروق الشايبه ، وفجأة رفع ابن قبينة بصره ثم صاح : ضيوف لنا على الطريق .

كانوا ثلاثة من الأعراب يسيرون نحونا عبر الصحراء ، وتفرس فيهم حمد عن بعد ثم قال : إنهم بخيت ومبارك وسالم أولاد ميه من بنى رشيد ، حييناهم وسألناهم الأخبار ثم قدمت اليهم القهوة ووضع مسلم وابن قبينة الأرنب والخبز أمامهم ليأكلوا .

حاولت النوم فلم أستطع وتلاقى الرفاق مع الضيوف وأخذ الجميع يتكلمون دون انقطاع على بعد بضعة أمتار من مكانى .

وقارنت بعين خيالى ، بين ضيافة الصحراء وضيافتنا، كان كرم البدو االزائد يزعجنى دائماً ، فقد كنت أعلم أنهم كثيراً ما يجوعون أياما متصلة .

من خصائص البدوى التطرف فى كل ما يأتيه من عمل فهو كريم جداً إلى حد التبذير ، وهو حريص جداً غاية الحرص ، وهو صبور جداً إلى درجة تثـــير غيره ، وهو ثائر جداً إلى درجة الهستيريا ، شجاع إلى حد لا يصدق . . . هياب دون ما سبب معروف .

والبدو يقيمون وزنا كبيراً للكرامة ، وهم يفضلون الموت على الأهانة ورغم تحفظهم أمام الأغراب فهم شعب ثرثار خفيف الروح وقلما يوجد شعب يجمع كل هذه المزيا التى يناقض بعضها البعض فى تطرف .

واستمروا فى صياحهم وثرثرتهم حتى مطلع الفجر وفى الصباح ألح علينا بخيت أن نزور خيمته محاولا إغراءنا بأنه سيمنحنا لحما وسمنا وأوشكنا أن نستجيب لدعوة بخيت فقد كنا نقاسى الجوع فعلا ، لولا أن قال حمد إن من العقل ألا نذهب لخيمة بخيت محفوفة بمضارب الاعراب .

وفى اليوم التالى مررنا ببعض المضارب وانحرفنا عنها ولـكن رجلا من سكانها أتى إلينا مهرولا وهو يصيح . قفوا ، وعندما اقترب عرفه حمد وقال ؛ لا بأس إنه سالم بن محمد العجوز وحييناه ، فسألناه لماذا لم ننزل بخيمته وعرض علينا أنه سيمنحنا لحما وسمنا وعارضت الذهاب معه ولـكنه أسكتنى بقوله : إمرأتى طالق إن لم تفعلوا واستلم عنان ناقتى وقادها نحو الخيام .

وتقدم منا شيخ عجوز وحيانا وعرفنا أنه محمد العجوز ونادى سالم العوف وذهبا معا عبر التلال ثم عادا ومعهما جزور ذبحاه وراء الخيام .

وأعد الشيخ العجوز القهوة ووضع التمر أمامنا وقال محمد للشيخ مشيراً إلى : إنه مسيحى ، فسأله الشيخ : أهو المسيحى الذى سافر العام الماضى مع ابن الكمام وبنى رشيد إلى حضرموت فأجابه حمد . نعم إنه هو فاستدار الشيخ إلى قائلا : ألف أهلا بك ، وعجبت كيف وصلتهم الأخبار مع بعدنا عن حضرموت . إن هذا يدل على مدى اهتمام الأعراب بالأخبار ومعرفة آخر الأنباء فليس هناك صمت فى الصحراء بل كل مايحدث فى أى جزء منها ينتشر ويشتهر وإذا أتى أحد الأعراب أمراً إدًّا فإنه يوقن أن أمره هذا سيفتضح وسيشيع فى كل مخيم . وهذا ما يجعل كلا منهم يحرص ألا يكون فى سلوكه ما يشين .

وامتد السماط ، ووضعت شرائح اللحم على طبق كبير غطى بالأرز ثم سكب الحساء على الأرز ، وغسلنا أيدينا ودعانا محمد العجوز للأكل ولم ينضم إلينا بل توجه ألينا يقول : اطعموا فأنتم جائعون ، ومتعبون لقد سرتم شوطا طويلا ، كلوا . وأكلنا حتى امتلأت منا البطون . وشكرناه وقدمت لنا القهوة فشربناها وألح علينا بالبقاء يوما آخر حتى نستريح وتستريح الأبل فوافقنا .

وجاءنا بخيت فى صبيحة اليوم التالى ومعه رفيقه ، كان بخيت تواقا لمرافقتنا إلى (عبرى) حيث يريد أن يبتاع أرزاً وبنا بما أعطيناه من مال ولكنه كان يخشى أن يذهب إلى هناك بمفرده بسبب العداء الذى بين بنى رشيد والدورو .

إن جميع القبائل التى تقطن المنطقة الواقعة بين حضرموت وعمان تنتمى إلى عصبين متنافسين ، يعرفان اليوم بالغفرى والحناوى . ولا يرجع تاريخ

هذين العصبين إلى استمرار الحرب الأهلية بينهما فى عمان فى بداية القرن الثامن عشر فحسب ، بل إن هذا التنافس يمتد إلى أجيال سحيقة فى التاريخ . . ويحتمل أن يكون مرجعه إلى الخلاف القديم بين قبائل عدنان وقحطان . وكان الدورو من الغفريين بينما آل رشيد ومن انحدروا من قحطان حناويين وظلت العلاقات حتى اليوم غير ودية بين الطرفين :

واقتربنا من وادى العين فاقترح محمد أن يسير هو والعوف أمامنا فلربما كان عند البئر من يطلق النار علينا . ولما وصلنا البئر واجهنا بعض الأعراب فى نقاش مع حمد ، وتقدم منا العوف ، وطلب إلينا الانتظار حتى ينتهى سوء التفاهم الذى قام بين حمد وبين اثنين من الدورو وما لبثنا غير قليل ، حتى أتى آخرون ومعهم إبلهم المحملة بالتمر من عبرى . وقد أعلن هؤلاء أنهم لن يدعوا أحد من آل رشيد يستخدم بئرهم ، وانتظرنا فى قلق ، مما يسفر عنه الموقف وانقضت نصف ساعة وجاءنا حمد مع شاب ، حيانا ، وطلب إلينا أن نرفع الأحمال عن الإبل ونستريح ، وهكذا انتهت المشكلة بسلام . وذهبنا مع الراعى الشاب (على) إلى مخيمه الذى يقع فى وادى العـــين ، وكانت أشجار هذا الوادى ذابلة ذاوية من شدة القحط ، ولم تكن هناك خيام أو أكواخ فى مخيم على ، بل كان يعيش مع عائلته فى ظل شجرتين كبيرتين من أشجار الأقاصيا ، يعلقون على أغصانها أدواتهم المنزلية ، وذبح لنا (على) عنزة ، وكان عشاءنا يتألف من اللحم والخبز والتمر ، ووافق (على) على أن يرافق بعض أفراد جماعتنا إلى عبرى ، ورفضت الذهاب إلى عبرى مدعياً المرض . وكان العوف قد أفهمه أننى من سوريا وفى طريقى إلى (سلالة) . واتفقنا على أن يظل مسلم وابن قبينه معى ، بينما يذهب الآخرون إلى عبرى ، ووعدنا (على) كذلك بأنه سيرافقنا إلى وادى العميرى ، حيث يعثر لنا على أحد أفراد قبيلة ربيعه ليصاحبنا عبر بقية بلاد الدورو ، ووصل والد

(على) بعد ظهر نفس اليوم مع ابن أخ له يسمى (محمد) ، والأب شيخ لطيف ساذج ، له وجه كثير التجاعيد ، وعينان ضاحكتان ، ولم أكن أخشاه ، بل كان محمد هو الذى أخشى ، إن محمداً يرتدى ملابس جديدة ، وقد جاء حديثاً من مسقط ، ويبدو عليه الغرور وإن كان قد أبدى لى الود . وقال الأب انه يفضل أن يذهب محمد معنا إلى وادى العميرى بدلاً من (على) ولكنى كنت أفضل (علياً) الساذج ، فليس من السهل على أن أظل مع محمد متنكراً لعدة أيام . فلا شك أنه سيلاحظ عدم ادائى للصلوات . وذهب (على) مع الزملاء .

وعشت فى ضيافة هؤلاء القوم أياما سعيدة ، وقد أحببت الأب كثيراً وسألته عن أم السموم ، فأخبرنى أنها الوديان الثلاثة وهى العين ، والأسود ، والعميرى تنتهى جميعها فى تلك الرمال المخوفة ، التى تبعد عنا بحوالى الخمسين ميلا جهة الغرب . وروى لى القصص الطوال عن اللصوص الذين غرقوا فى الرمال هناك . وأكد لى انه رأى بعينى رأسه قطيعاً من الماعز يختفى عندما انشقت الأرض فجأة وابتلعته .

وقررت أن أزور أم السموم ، وانتويت جمع المعلومات عنها من الأعرابى الشيخ ، كان لابد أن أعرف شيئاً عن القبائل وحلفائها ، وعن الشيوخ المختلفين ومنافسيهم ، وعن حكومة الأمام . وكيف تعمل . وأن أعرف كذلك مواقع الآبار والمسافات التى تفصل بينها .

ومضت أيام خمسة ولم يعد الزملاء وبدأ القلق يساورنى ، كما ازداد قلق الشيخ على ولده بسبب الاضطرابات الحالية فى (عبرى) وأوحى إلى الشيخ أن أرحل إلى هناك .

وقررت الذهاب مع الشيخ إلى عبرى فى اليوم السابع ولكن الزملاء عادوا عند الغروب ، وعلمت أن السبب فى تأخرهم كان طول الطريق عما توقعوا وان كنت قد فهمت أن تباطؤهم كان للمتعة فى عبرى .

ورجع حمد وبخيت إلى مخيمهما فى اليــــوم التالى . وتولى القيادة محمد . وسار بنا تجاه الجانب البعيد من الوادى . ومضت ثمانى ساعات وصلنا بعدها إلى وادى الأسود ، وسرنا يومين آخرين حتى وصلنا وادى العميرى ، وكان من الصعب على تدوين الملاحظات التى احتاجها لرسم خرائطى أو أخذ صور فوتوغرافية مع وجود محمد ، فقد سبق له أن سأل الزملاء عن سبب عدم صلاتى فأقنعوه بأنه يبدو أن السوريين لايهتمون كثيراً بأمور دينهم .

كان وادى العميرى عريضاً ، كثير الشجر ، وأنزلنا محمد على خيمة أعرابى يدعى (راعى) ، ينتمى إلى آل (عفر) أصدقاء الحناويين واتفق محمد معه على أن يصاحبنا إلى (وهيبه) وأهلها من أصل حناوى .

وغادرنا محمد فى اليوم التالى ، وظللنا أربعة أيام أخرى فى وادى العميرى وفهمنا من (راعى) أن الكلأ سيكون قليلا عبر وادى العميرى .

واضطررت إلى كشف حقيقتى أمام (راعى) ، بعد أن أفهمنى مسلم ألا ضرورة لإبقاء ، ذلك سراً وتطلع إلى (راعى) قائلا : لو عرف الدورو من أنت فأنت لاشك هالك وحذرنى من أن يعرف السر أحد .

واستأنفنا سيرنا ، كان (راعى) ورفاقه يتكلمون دون انقطاع ، ووصلنا إلى بئر (الحوشى) بعد سته أيام من مغادرتنا لوادى العميرى .

وسرنا بعد ذلك غربا صوب (باى) ومررنا فى طريقنا بأرض موات قفر ، موحشة فأصابنى الملل وشعرت باحساس كئيب من الألم وحاولنا تجنب الرياح اللافحة فكممنا وجوهنا كما حجبنا أعيننا من النور الباهر الذى صدع رؤوسنا وتاقت نفسى إلى حلول الليل .

ووصلنا (باى) بعد خمسة أيام من تركنا (حرشى) ورأينا إبلا على بعد ، تفرس فيها مبخوت ثم قال : هذا جمل ابن تركى وذاك جمل ابن انوف وتقدمنا وسمعنا ابن انوف يصيح : لقد جاءوا ، لقد جاءوا ، وركض نازلا عن المنحدر . ثم ظهر الطمطائم وقد هرول يعرج نحونا ونزلت كى أحييه فطوقنى بذراعيه والدموع تجـــرى على خديه وقد أعجزه عن الكلام فرط تأثره .

وقدنا جمالنا إلى حيث يخيمون وتبادلنا التحيات والأخبار ، كان ذلك فى الواحد والثلاثين من يناير وكنت قد تركتهم فى مُقشن فى الرابع والعشرين من شهر نوفمبر وخيل إلى أنى قضيت عامين بعيداً عنهم .

ونمنـا قليلا تلك الليلة فقد طال الحديث وتشعب وشربنا الكثير من القهوة ونحن نقص عليهم تفصيل ما حدث ، فالبدو لا يعترفون بالاختصار .

ووصل بقية الزملاء فى اليـــوم التالى وكان معهم أفراد من آل (الحراصيص) الذين جاءوا ليروا المسيحى ، ورأيت بعض النسوة المحجبات وقد لبست احداهن ثوباً أبيض على خلاف العادة ، لقد انتهت مشاكلى وزال قلقى الآن ، ولكن الطريق إلى (سلالة) لازال طويلا .

وسرنا عبر (الحراصيص) وقد أصبحنا كالجيش الصغير بعد ان انضم إلى ركبنا عـددمن ابنائها ليزوروا سلطان مسقط الذى وصل إلى (سلالة) حديثاً .

وفى الطريق مررنا بخور الور وشربنا من مائه الفاسد ، ولـكن ظمأنا كان شديداً فلم نأبه لفساد طعمه ، وتابعنا المسير حتى وصلنا (عند هور) حيث أقمنا خيامنا ثم تسلقنا جبال (القرة) وأشرفنا على البحر وكان ذلك بعد تسعة عشر يوماً من مغادرتنا (باى) .

وأشرفنا على (سلالة)وارسلنا من ينبىء المسئولين بوصولنا، وفى الصباح وصل ركب الوالى ومعه نفر من بنى رشيد لاستقبالنا .

وأقام لناالوالى مأدبة على شاطىءالبحر وبعد الظهر أخذناوجهتنا إلىمعسكر القوى الجوية الملكية ، وقد أصر زملائى على أن ندخل معاً دخول الظافرين وهكذا دخلنا ونحن نطلق الرصاص بينما يرقص أمامنا بعض أبناء بيت كثير ويغنون وقد شهروا خناجرهم وأخذوا يلوحون بها .

الباب التاسع

من سلالة إلى المكلا

مكثت أسبوعا فى « سلالة » أجمع ملاحظاتى وأصنف مجموعاتى وأرتب لسفرى إلى المكلا مع آل رشيد .

لقد جئت (ظفار) وأنا معتزم اجتياز الربع الخالى وهأنذا قد نجحت إن مركز أبحاث الجراد لا يرى فى اجتيازى للربع الخالى الأهمية التى يراها لعودتى عبر أراضى عمان .

ولقد خرجت من مشاهداتى الخاصة والاستعلامات التى قمت بها أثناء عبورى للربع الخالى بنتائج أهمها أن السماء لم تمطر فى أى مكان من هذه الأصقاع لعـــدة سنوات فالمطر نادر ، اللهم إلا بعض دفعات متفرقة . والجراد لا يحتمل وجوده إلا حيث ينزل المطر ، وقد رأيت بعضاً من الجراد أثناء رحلتى وكان ذا لون أصفر . ومعنى هذا أنه بسبيل التوالد . وقد جلب لى ابن قبيته ورفاقه نماذج من هذا الجراد ، ولـكنها لم تـكن ذات أهمية .وفوق هذا ، فقد أحضرت من عمان المعلومات التى طلبها مركز أبحاث الجراد . وكان الدكتور (أوفاروف) يعتقد أن أحواض الأنهار التى تسق الجهة الغربية من منطقة الجبل الأخضر ، يمكن أن تحمل معها إلى الصحراء مياها تـكفى لوجود نباتات دائمة فى هذه المنطقة ، وعلى هذا تصبح أفواه الوديان الـكبيرة مراكز لانتشار الجراد الصحراوى . ووجدت أن

الفيضانات نادرة فى المنحدرات السفلى وأنه إذا حدثت هذه الفيضانات فإنها تتوزع فى سهول (السموم) الملحة القفر ، حيث لا ينمو نبات .

وقابلت السلطان (سعيد بن تيمور) وكان لطيفا معى إلى أبعد الحدود . وقدم لى السلطان كل مساعدة ممكنة لتنظيم المرحلة التالية . وأكد لى أن القيود التي تفرض على القوات الجوية الملكية لا تمتد إلى ، وأن لى حرية التنقل والكلام مع الأهلين طيلة وجودى فى (سلالة) .

وقررت السفر إلى المكلا فى محمية عدن الشرقية كى أرسم مصوراً لها متعقباً مجرى المياه بين الوديان شمالا إلى الصحراء وجنوباً إلى البحر ، وتبادلت الرأى مع ابن قبينة كى يصحبنى هو وبعض آل رشيد إلى المكلا واستقر الرأى على أن أتعاقد مع خمسة عشر رجلا كما فعلت فى السنة السابقة على أن يحدد آل رشيد عدد من سيرافقنى . وصرفت أبناء بيت كثير ما عدا مبخوت وابن تركى وابن أنوف، ولم يقبل مسلم السفر معنا لأننا سنمر بأرض (المهرة) وقد سبق له أن قتل رجلا منهم .

وفى اليوم الثالث من شهر مارس جاءنى (ابن كالوت) وبرفقته ستون رجلا من آل رشيد وأبدوا إستعدادهم للسفر . وودعت مسلم وأبناء بيت كثير وسألت ابن كالوت : كم رجلا من هؤلاء سيرافقنا إلى المكلا ؟ فأجاب بأنه اختار ثلاثين فقط من بنى رشيد بالاضافة إلى بعض الرفاق القدامى وبعض أفراد من آل ربيعة ومن بيت خوار والمهرة والمناهل ، وقد تزودت بالكثير من الطعام حتى لا نتعرض لخطر الجوع فى طريقنا الشاق الطويل إلى المكلا .

كان ابن كالوت رجلا يلفت النظر بقصره وامتلاء جسمه، رزينا فى

حركاته وإشاراته وكلامه ، وكان آل (صعر) يعيشون على الهضبة الممتدة شمالى حضرموت وهم يعتبرون العدو الرئيسى لبنى رشيد وبيت كثير والمناهل بيد أنه خلال السنوات الأخيرة ، حل محلهم فى هذا العداء قبائل (الدهم) و (عبيدة) من أهل اليمن . وهم من أشد الغزاه خطرا فى الصحراء الجنوبية وهاتان القبيلتان ليستا أصلا من البدو بل من القرويين الذين يعيشون على هضاب اليمن .

ودارت مناقشات بين البدو حول (الدهم) وازدياد خطرهم وكان كل واحد منهم يصيح ويصخب فلم أستطع متابعة حديثهم واقترح أحدهم حربهم ، واقترح آخر أن تتحد القبائل لتنزل الهزيمة بالدهم . وعرفت من ابن قبينة أن الأخير كان (ابن دويلان) المعروف باسم (البس) أى القط ، ونظرت إليه فى اهتمام فابن دويلان أكبر لص عرفه جنوبى الجزيرة .

وتكلم ابن كالوت بعد فترة من السكون فقال فى صوت عميق : دعوا ابن الكام يذهب إلى الدهم ويطالبهم باعادة إبل بنى رشيد فإن استجابوا تمسك بنو رشيد بالهدنة وإلا فالحرب بيننا وبينهم .

وبدأ السير فى اليوم التالى وقد انضم إلى جماعتنا فتى جديد يدعى (سالم بن عبيشه) بعد إلحاح من ابن قبينه الذى امتدحه ووصفه بأنه اقدر من يطلق النار فى قبيلته وأنه صائد ماهر ، ومنحت ابن عبيشه إحدى بنادق .

وحدث أن نهض ابن قبينة فى ذات اليوم بعد العشاء من جانبى ليحضر جمله ، وفجأة صرخ أحد الزملاء : لقد سقط ابن قبينه ! وتطلعت فيما حولى ، فإذا بالفتى ملقى على الرمال وقد فقد وعيه . وأمسكت بمعصمه فإذا بدقات قلبه ضعيفة وتنفسه بطىء وجسمه بارد ، فحملته إلى قرب النار ودثرته

بالأغطية ثم حاولت أن إسكب فى فمه قليلاً من النبيذ ولكنه لم يستطع بلعها وجلست إلى جانبه إسترجع ذكرياتى مع هذا الفتى ، كيف قابلته للمرة الأولى فى وادى « ميتان » وكيف جاء إلى (شيصور) ليلحق بى . ثم كيف آثر البقاء معى فى (رملة الفافة) بعد أن تركنى آل بيت كثير ، وتذكرت سعادته عندما أهديته البندقية، وعضضت بنان الندم على ما فرطت فى جنبه،فقد كنت أحيانا أصب جام غضبى عليه لأتفه الأسباب لأخفف عن نفسى من حدة التوتر التى كنت أعيش فيها .

وتجمهر الكل حولى فى جزع عليه وسألنى أحدهم أين سنذهب فى الغد فأجبته : لن يكون لنا غد إذا مات ابن قبينه ، واستلقيت إلى جانبه وشعرت به يتحرك شيئاً فشيئاً واستيقظ عند الفجر واستطاع أن يسمعنى وإن لم يستطع النطق وأشار لى إلى صدره فأدركت أنه يشعر بألم فيه . واستطاع ابن قبينة أن ينطق عند منتصف النهار » وما أن جن الليل حتى كان قد استعاد صحته بعض الشىء ، وقد تجمع حوله آل رشيد وهم يرتلون الأدعية ويطلقون الرصاص. ثم قاموا برش الدقيق والبن والسكر فى قاع الجدول وذبحوا عنزة ورشوا من دمها عليه طرداً للأرواح التى آذته وبعد كل هذا أعلنوا شفاءه التام .

وسافرنا فى اليوم التالى إلى (مذهل) وكنت قد علمت من رفاقى أن بمذهل آثار قديمة. إلا إننى لم أعثر إلا على آثار قليلة على الجانب الشمالى من الجبل مع أن هذه البقعة ذات أهمية كبيرة بالنسبة لحضارات جنوب شبه الجزيرة العربية المتعاقبة .

ولم اكن أتعجل الوصول إلى المكلا فقررت التباطؤ فى المسير والتريث هنا وهناك فى ظل صخرة باردة أو فى ظل شجرة وارقة . نستريح ساعات

ونسير أخرى حسب ما يطيب لنا . فماؤنا وفير وطعامنا كثير وإبلنا تجد في أشجار الأقاصيا ما يشبعها . ودأب ابن عبيشة على اصطياد وعل أو غزال كل يوم تقريباً يطبخه لنا ابن قبينة .

وقضينا ثلاثة أيام فى (حبروت) ، زارتنا خلالها وفود متواصلة من الزائرين وكان من بين هؤلاء سيدة تدعى (نورا) كنت قابلتها فى السنة الماضية . لها اولاد ثلاثة وعمر الأكبر منهم تسع سنوات تقريباً ، كانت غير محجبة،وتضع خاتماً فضياً فى فتحة أنفها اليمنى وأخبرتنى (نورا) أنها فى طريقها إلى (عنيدات المهرة) لتجلب حملا من السردين وأكلت من طعامنا هى واولادها وإن لم تجلس معنا، فالاعراب لايجلسون مع النساء .

يعتقد الشعب الانجليزى ، خطأ ، أن نساء العرب يعشن وكأنهن فى سجون ،واذا صح هذا بالنسبة للنساء فى المدن فأنه غير صحيح بالنسبة لنساء البدو . فمن المستحيل ان يسجن رجل امرأته وهما يعيشان فى ظل شجرة او داخل خيمة مفتوحة على الدوام من أحد جوانبها . كما أن الرجل البدوى يطلب من امرأته ان تعاونه فتحتطب وتحضر الماء من البئر وترعى الماعز بل ان البدوية إذا رأت من زوجها إعراضاً او إهمالا تركته إلى أهلها ويضطر إلى استرضائها كى تعود معه .

ومن (حيروت) صعدنا إلى سهل (دارو) ومنه نزلنا إلى وادى (كديوت) وكان ثمة جدول صغير يجرى بين الصخور فملأ منه آل مهرة جلودهم وسقوا إبلهم، وجلسنا على مقربة من المجرى نتجاذب أطراف الحديث . وفجأة تقدم منا فتى تبين لنا أنه سعيد شقيق ابن قبينه كان وجهه كالزهرة عندما تتفتح . وقد حاول جاهداً أن يبدو محترماً وطلب مني أن أضمه الي الجماعة .

وعلت صرخات من بعض الرجال الذين كانوا بأعلى إحدى الصخور وراعنى أن رأيت جماعة من (بيت خوار) تسد الطريق على إبلنا وتمنعها من المرور بحجة أنه لا يجوز لمسيحى أن يمر عبر واديهم. وبدأت المعركة أو أوشكت وتجمهر عدد كبير من (بيت خوار) أمامنا، وقد عقدوا العزم على منعنا من المرور فى واديهم، إلا بعد دفع مبلغ من المال، ورفضت الأذعان قائلا : إن معى أحد أفراد ربيعة فلى حق المرور، ولكنهم لم يقتنعوا وأصروا على أن أدفع إذا ما أردت المرور، وكنت أخشى أن أرضخ مرة لمثل هذا الطلب فلا أستطيع التهرب من أمثاله فيما بعد . وأخيراً انفض الاجتماع دون الوصول إلى إتفاق . وأوشكت معركة أن تقوم. ولكنها تأجلت لفرصة أخرى. وجاء بعض أفراد (بيت خوار) إلى مخيمنا للثرثرة ومعرفة الأنباء .

وتشاورت مع رجالى ماذا نفعل إزاء إصرار هؤلاء القوم ، وأجمع الرجال على أن (بيت خوار) مخادعون، وليس من حقهم سلبنا أى مبلغ من المال مقابل المرور، وإن الدافع لهم على هذا التصرف هو الجشع والطمع . وأشار علينا ابن كالوت والعوف وابن دويلان أن نتبع الطريق الذى قررنا أول الأمر اتباعه، لولا أن أراد بنو رشيد نزول هـذا الوادى ذى المرعى الخصيب . وحذرنى ابن كالوت أنه لو أن أحمق أطلق علينا رصاصة فأصابت أحدنا فإن حربا طويلة الأمد ستنشب ، فوافقت على اتباع الطريق الأول الذى يقع فى أعلى الصخور حتى لا أثير المشاكل بين القبائل .

وأراد رفاقى ، السفر غربا إلى (المسيلة) وهى امتداد لوادى حضرموت ولكن آل المهرة أبوا علينا ذلك ، ما لم استأجر إبلهم وأسرح آل رشيد من صحبتى فقبيلة المهرة من الغفريين وهم فى حالة حياد مسلح مع آل رشيد وبيت كثير .

ووافقت على استخدام خمسة منهم ليرافقونا مدة يومين .

وبعد ثلاثة أيام عبرنا خط تقسيم المياه بين الوديان التى تقع إلى الشمال وإلى الجنوب . ووصلنا إلى بئر (ضحلة) وعند الظهر تقريباً ظهرت جماعة صغيرة من المناهل ترعى سربا من الماعز، ونبهتنا هذه الجماعة إلى أن ما يقرب من المائتين والخمسين رجلا من الدهم شنوا غزوة على البلدة التى أمامنا وقد بلغ عدد قتلى المناهل سبعة وقتلى العوامر سبعة أو ثمانية .

ولم يثننا ذلك عن استئناف المسير ووصلنا إلى ضريح النبي هود فى (المسيلة) حيث وجدنا الكثيرين من المناهل متجمعين مع إبلهم ونعاجهم وماعزهم .وأنبأنا هؤلاء أن عصابة من اللصوص يبلغ عدد أفرادها . السبعين رجلا هاجمت مخيما يضم سته من المناهل فى وادى (الهون) القريب من مكاننا ولم ينج منهم إلا رجل واحد . ولكنه لا يدرى ماذا حل برفاقه . كما علمنا من هؤلاء القوم. أن عصابة أخرى من اللصوص تفوق الأولى عدداً سطت على (المدارج) فى الشمال .

وقررنا الذهاب الى قرية(فغامة)حيث كان (ابن تناس) شيخ المناهل يحشد رجاله، وقد سبقنا اليه ابن دويلان لينبئه بمقدمنا . وبأننا على أهبة الاستعداد للانضمام الى محاربيه فى قتال الدهم لو أنه حدد مكان وجودهم،ولم أكن متأكداً من موافقة آل رشيد على هذا الرأى فقد كانوا اسمياً فى حالة سلم مسلح مع الدهم كما سبق القول، ولكنهم أعلنوا فى الحال أنهم تنفيذاً لأمرى سيعتبرون أنفسهم جنوداً لا يتقيدون بالعادات والتقاليد القبلية .

وفى (فغامه) لم نجد سوى النساء والأطفال ورجل واحد عجوز . وعلمنا أن ابن تناس.كان فى الوادى وأن ابن دويلان قد ذهب اليه ، وأقمنا خيامنا

قرب القرية وجاء من ينبئنا، بعد الغروب بقليل ، بأن اللصوص قد دخلوا (المسيلة) وما لبثنا إلا القليل حتى وصل إلى سمعنا صوت طلقات سريعة متتالية . فأسرجنا إبلنا وأخمدنا نيراننا كتعليمات ابن كالوب وجلسنا فى الظلام إلى جانب الإبل ، وكان ابن قبينة وأخوه سعد وابن عبيشة على مقربة منى، وقد إنهمك ابن عبيشة فى ملء أكياس سرجى بحزام خرطوش الذخيرة الاضافية . وهمست فى آذانهم أن يكونوا على مقربة منى لو نشب قتال .

كان العوف قد ذهب مع خمسة من آل رشيد ليستكشفوا . وقد عادوا وعلمنا منهم أن ليس ثمة ما يدل على وجود الدهم فى الوادى ونصحوا بأن نكون على أهبة الاستعداد للطوارىء .

وظللنا يوما آخر نتسمع أخبار الغزاة وفى الرابع عشر من شهر أبريل استأنفنا مسيرتنا نحو المكلا . وتسلقنا مرتفعات ملتوية بين أكداس من الصخر المتساقط فى (غيل بايمين) ثم عبرنا الصعيد الحجرى الأسود المسمى عند العرب الجول وبعدها انحدرنا إلى الساحل قرب (شهر) إلى أن وصلنا المكلا فى اليوم الأول من شهر مايو .

وفى المكلا نزلت بدار المقيم العام البريطانى ، اما البدو فقد أعد لهم المقيم العام مكانا ينامون فيه فى ضواحى المدينة .

وما أن اغتسلت وأصلحت من زينتى على الطريقة الأوروبية حتى ذهبت إلى حيث يوجد البدو واقتربت من مخيمهم ورآنى ابن انوف، ولكنه لم يتعرف علىّ بل قال لقومه : احذروا هذا المسيحى القادم إلينا . ووقفت بالباب مترددا وكلمنى ابن تركى. فرددت عليه بالانجليزية وقال احدهم ليدخل وطلب آخر القهوة . وسألنى ثالث إن كنت أشربها ام لا وجلست معهم .

كان ابن قبينة وابن عبيشة والعوف ومبخوت وابن كالوت العجوز ينظرون إلى وفجأة قال ابن قبينة : والله إنه المبارك ! وأمسكنى من كتفى معاتباً لم اكن أعلم ان شكلى قد تغير إلى حد عدم معرفة الزملاء لشخصيتى ، فقلت لهم : اتحبون ان أسافر معكم وانا على هـذه الحال فأجابوا جميعاً : كلا ، لن يذهب معك أحد وأنت بهذا الزى .

واطلعنى ابن قبينة فى الليلة الأخيرة التى أقمناها بالمكلا على ما ابتاعه وقد راقبته وهو يطوف الأسواق متفحصا القماش والمعاطف والقمصان والبسط والأغطية وتوقعت ان يبتاع لنفسه شيئاً يقيه البرد فلقد كان جسمى يقشعر عندما أراه عارياً على الرمال فى ليالى البرد القارسة . وكنت أعلم أنه لن يزور مدينة أخرى قبل عدة سنوات فاقترحت عليه شراء بعض الأغطية ولكنه قال: الأبل أولا ، إنها أهم شيء فى تقديرى. وبوسعى الآن أن أشترى ثلاثة منها بالمال الذى أعطيتنيه ، وبما ان عندى ثلاثة اخرى منها فيصبح لدى ستة جمال . إنى لغنى الآن وقد اعتدت مواجهة الصعاب فلن يؤثر فىّ زمهرير ولا قيظ . . . إننى بدوى .

الباب العاشر

الاعداد للعبور الثانى

ذهبت من المكلا إلى الحجاز حيث قضيت قرابة الشهور الثلاثة متجولا حتى وصلت (نجران) فى بلاد « اليم » وهى تقع على الحافة الشمالية الغربية للربع الخالى . وعدت بعد ذلك الى لندن .

لم أشعر قط بالحنين إلى الحقول الخضراء والغابات الناضرة ، طيلة وجودى بالصحراء القاحلة ، ولكننى شعرت بحنين دائم إلى صحراء العرب اثناء وجودى بانجلترا . وعرض على مركز مكافحة الجراد عملا جديداً هو الاشراف على إبادة الجراد بالحجاز مقابل راتب مغر . وأوشكت أن أقبل ولكن ما هممت حتى فضلت على ذلك سحر الصحراء وزمالة بنى رشيد.

وأصبح هدفى اجتياز القسم الغربى من الربع الخالى ، وكنت قد فكرت من سنتين فى القيام بهـــذه الرحلة، ولكن الملك ابن سعود رفض بشدة ان يمنحنى إذنا بذلك. ولقد صممت الآن على القيام بهـــذه الرحلة، مهما كان موقف الملك وكنت على ثقة من أن بعض آل رشيد سيوافقون على مرافقتى وعن طريق رفقتهم ستذلل أمامى كل صعوبة فى الصحراء . وأبرقت إلى المقيم العـام البريطانى فى المكلا طالباً منه ان يوفد إلى ابن قبينة فى «حبروت» من يبلغه هو وابن الكمام وابن عبيشة ، أن لقاءنا فى حضرموت فى اوائل شهر نوفمبر .

وصلت المكلا فى الثالث من شهر نوفمبر وقضيت أياماً مع المقيم العام أعد

للرحلة القادمة وقررت أن أتجول نحو أسبوعين فى منطقة (صعر) قبل رحيلى إلى الصحراء حتى يصل ابن قبينة ورفاقه ، وتعرف قبيلة (صعر) بأنهم ذئاب الصحراء ، فهى قبيلة قوية وكبيرة تهابها قبائل جنوب الجزيرة وتحسب لها ألف حساب، فهى إذا نهبت لا تعرف الشفقة ولم يستطع أوروبى من قبل أن يصل إلى ربوعها فيما عدا (بوسكادن) ، (أنجرامز) .

وقبل رجلان من (شيبام) أن يرافقانى إلى (صعر) وكانا يملكان جملين ذكرين قويين وصعدنا نحن الثلاثة إلى (ربضة الصعر) وهى واد قليل العمق لا يزيد اتساعه عن المائتى ياردة،ذو أرض كاسيه قفراء وشاهدت على الصخور المنخفضة التى كانت تحيط به،بعض مبان حجريه وأبراج للمراقبة،وكان أغلبها خاويا وقد أخبرنى أحد الرجلين أن قومهما هلكوا جميعا فى المجاعة الكبرى التى نزلت عام ١٩٤٣ . وأخبرنى الرجلان أن وادى (ربضة الصعر) كان مخضوضرا ، حافلا بمختلف النبات وخاصه اللوبياء وفى بلاد آل صعر توجد بئران دائمتا المياه فحسب ، إحداهما فى (منوخ) وعمقها مائة وثمانون قدما والثانية فى (زمخ) وعمقها يصل إلى مائتين وأربعين قدما .

وعلم آل (صعر) بمقدمى قبل أن أصل ، فتجمعوا فى (الريضات) للترحيب بى، واستقبلنى القوم ببرد زائد ووجدت فيهم رجالا شجعانا ذوو مرح ، ليس بهم شىء من جشع (بيت كثير) ، وإذا كانت القبائل الأخرى تصفهم بالمارقين، فأن ذلك قد يكون مبعثه الكراهية والمنافسة ، ومهما يكن الأمر فإن سمعة آل صعر كزنادقة شائعة بين البدو فهم لا يقيمون الصلاة ولا يصومون ، ويدعون أن النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) أعفى أجدادهم من

فريضتى الصوم والصلاة ، ومن حيث الشكل فإن آل صعر صغار الجسم ضامرو البنية مثلهم فى ذلك مثل جميع أبناء البادية الجنوبية وقليل منهم من يلبس عمامة فوق رأسه وأرديتهم مصبوغة بمادة (النيلج) .

وعند مغادرتنا (الريضات) مررنا بقبر قديسة مسلمة تدعى (ولية الله رقية) وقد أصبح ضريحها مزارا وما أن وصلنا اليه حتى طاف صاحباى حوله ، وقبــــل كل منهما يده اليمنى بعد أن لمس بها أحجار القبر . ثم تركا بعض حبوب البن إلى جانب الضريح . وهذه عادة البدو عندما يمرون بالأضرحة التى تنتشر فى هذه البلاد كى يستطيع المسافر الفقير أن يستخدمها ومن عادة آل صعر أن يكثروا من إضافة الطيب والزنجبيل إلى القهوة ، وفناجينهم مصنوعة من الفخار المحلى ، وعلى من يقدم له فنجان القهوة أن يرتشف منه بعض رشفات ثم يعيده إلى الخادم الذى يملأه مرة ثانية ويقدمه لشخص أخــــر ،

زرنا بعد ذلك بئر (منوخ) وقد سررت لرؤية هذا البئر إذ أدركت أننى سأبدأ فى اجتياز الربع الخالى ووجدت هناك بعض آل صعر يسقون جمالهم . وما عزهم . وماء هذه البئر نقية صافية ولكنهم يخلطونه بصخر الملح قبل أن تشربه الأبل

وعلمت من آل صعر أن أفرادا من آل رشيد يقيمون خيامهم قريبا من مكاننا ، وذهبنا اليهم فى اليوم التالى ووجدت هناك عبد الله الأعور ومحمد نجل ابن كالوت وبعض شيوخ المهرة والعوامر وما أن اقتربت منهم حتى أطلقوا الرصاص منخفضا فوق رأسى وهى تحيتهم التقليدية للشيوخ أو

الشخصيات ذات المركز المرموق واجتمع هناك قرابة الأربعين من آل صعر للمباحثة فى أمر تجديد الهدنة مع بنى رشيد . وأخبرنى محمد ان ابن قبينة قد تسلم رسالتى فى (حبروت) وأنه سافر إلى(غيدة) على الساحل بحثاعمن يترجم له رسالتى وأنا أعلم أن (حبروت) تبعد حوالى المائة ميل على الاقل من (غيدة) وأدركت حينئذ السبب فى تأخيره وعلمت من محمد أيضا أن ابن الكمام ما زال باليمن يتباحث مع الدهم لاعادة إبل بنى رشيدوان ابن عبيشة فى ظفار ، وسألنى محمد سرا عن وجهتى فأخبرته بأنى أعتزم اجتياز الربع الخالى . وقبل السفر معى واتفقت معه على اللقاء فى (الريضات) ولكنه لم يستطع الحضور فى الميعاد المحدد له بسبب تعثر المفاوضات مع ال صعر وابلغنى محمد ان أبناء عشيرته تقول بأن المناهل قد غزوا (اليم) مرة أخرى بحملهكبيرة قوامها مائة واربعون محاربا . وأن عشرة رجال قتلوا من (اليم) وتسعة من « المناهل » مع ابن دويلان الذى قاد الحملة .

كانت هذه انباء غاية فى السوء ، فمعنى ذلك قيام غارات انتقامية على مستوى واسع من جانب (اليم)، ومن المحتمل أن يشترك (الدواسر) معهم فى هذه الغارات بعد أن قبل آل صعر عددا من (الدواسر) فى المعركة الأخيرة .

وكانت الأنباء كلها تقول بغزوات مرتقبة وقد ساور محمد وعبد الله القلق بسبب قيام حملة مؤلفة من مائة وخمسين محاربا من قبيلة (عابده) من اليمن متجهة صوب الشرق منذ اسبوعين وقائد هذه الحملة يدعى (مرزوق) من آل صعر ، ويعيش مع العابدة ، وذاع صيته على أن شخصيته تبعث الفزع فى القلوب .

والح على محمد ان أقضى الليل معـــه ، ولكنى كنت متعجلا العودة الى

حضرموت لأقابل ابن قبينة وبعد يومين كنت قريبا من بئر (تاميس) التى يمتلكها (العوامر) وهــــذه منطقة محفوفة بالأخطار. وسبقنا أحمد كى يستكشف الطريق ، ولكنه عاد بعد قليل ليخبرنا أن جماعة كبيرة من رجال (المناهل) قادمة من الوادى الرئيسى وحذرنى شخصيا من الظهور فالمناهل يكرهون آل صعر وقد هاجموا مراكز الحكومة فى حضرموت فلا بدع إذا ما اعتبروا نفسهم فى حالة حرب مــــع المسيحيين أيضا فهم لصوص ذو أمزجة بربرية ،

وتلصصت فى حذر لأرى من بين الصخور نحوا من عشرين رجلا يختفون فى زاوية على بعد ربع الميل كانوا يسوقون إبلهم ويسيرون فى صمت وقــد أمسكوا بالبنادق . إنهم شبه عراة يكتفون بستر عوراتهم . لم يكتشفونا ولم نغادر مكاننا إلا بعد أن تأكدنا من رحيلهم .

واستأنفنا سيرنا وصادفنا كهف،قررنا قضاء ليلتنا فيه وتنبهنا على صوت يقرؤنا السلام فأمسكنا ببنادقنا، ولكننا لم نلبث أن عرفنا القادم إنه (عمير) ونزل عمير عن جمله وحيانا ، ومن عمير عرفت أن جمل ابن قبينة قد نفق وأنه فى انتظار عودتى

وسألت (عميرا) عن أخبار ابن عبيشه فأخبرنى أنه مـــع أبيه فى (مذهل) .

وفى طريق عودتنا إلى (صيوون) مررنا بغابات النخيل فى (القوف) وهى مسقط رأس العوامر الاصلى ثم وصلنا إلى (شبيام) وبعدها أقمنا خيامنا على السهل فى حضرموت وبذلك نكون قد قطعنا قرابة المائتين

والخمسة والعشرين ميلا . وفى (صيرون) رأينا قصر السلطان الفخم ذا اللون الأبيض .

وأرسلت برقية إلى عدن طالبا اتصال الوالى بابن عبيشه وإرساله بالطائرة إلى (الريان) ثم بالسيارة إلى (صيرون) وبعد أسبوع وصلنى مايفيـــد تنفيذ ماطلبت .

ووصل ابن غبيشة وسالنى وجهتى فقلت . الربع الخـــالى ، إلى وادى (الدواسر) ثم الى ساحل الهدنة وأهديته أحدى بنادقى .

وسرنا الى (الريضات) ثم (منوخ) . وأرسلت (عميرا) ليخبر محمدا وأبن قبينة أننا قد وصلنا ،

وعند الفجر ركبنا الى مخيم آل (صعر) وقد مررنا فى طريقنا بقطعان النوق الحلوب السمينة وكانت خيام القبيلة تغطى الوادى والاطفال العراة يلعبون ويمرحون من حولها وما أن تقدمنا حتى بادر بنو معروف باستقبالنا وتحيتنا باطلاق الرصاص على انخفاض فوق رؤوسنا وأقبلوا علينا يصيحون ويلوحـون بخناجرهم ونزلنا كى نحيي شيوخهـــم وبعض شيوخ آل كرب والمناهل وآل مهرة الذين كانوا معهم ورأيت ابن قبينة مـــع المستقبلين فسرتنى رؤيته ،

وأخذنا أهبتنا للرحـلة الشاقة الطويلة فابتعنا الإبل وأخترنا الدليل ، كان الجميع يؤكدون أننا سنلقى حتفنا على أيدى (اليم) و (الدواسر) فرفاقنا من آل رشيد صغار السن قليلو الخبرة ، واقترح أحدهم ذات ليلة ان نصرف النظر عن المرور بوادى (الدواسر) وان نعبر الصحراء من الجانب القصى شرقا

عبر صحراء الدقافة ولكننى كنت أود أن أعبر نفس الطريق الذى عبره توماس فيلبي من قبل فالصحراء الغربية هى هدفى فى الاستكشاف ووافقنى الجميع على رأيى .

وجاءنا احد ابناء (مهره) بعد أن أعددنا عدتنا لاستئناف السفر وكانت معه أنباء عن ابن مرزوق ولصوص العابد ، لقد نهبوا آل رشيد وآل المناهل وسرقوا عدة جمال وقتلوا اثنين من الرعاة وعلى هذا كان لابد لنا من تأجيل القيام بالرحلة إلى ان تهدأ الحال . كان كل واحد منا يعتقد أن لصوص ابن مرزوق سيقتلوننا دون رحمة أو شفقة متى عثروا على آثارنا .

وذهبنا بعد يومين إلى بئر (منوخ) وشاهدنا عنده جمهوراً يغنون وينشدون وهم يسحبون الحبال فيخرجون الأوعية ملأى من جوف البئر . ونصحنا الجميع بالتخلى عن الخطة التى وضعناها لعبور الصحراء خشية أن يقتلنا (اليم) وتشاورت مع رجالى من آل رشيد فقالوا جميعاً . نحن معك أينما ذهبت وبدا لى فى هذه الآونة أن عبور الربع الخالى أصبح ضربا من الجنون فليس هناك من يرشد أو يدل على طريق تبلغ الأربعمائة ميل ؛ خالية من الماء .

وكان زملائى فى الرحلة من آل رشيد لا يخشون من الرحلة إلا جانب الغزو من قبل الأعراب . أما أنا فقد أهمتنى الصعوبات الطبيعية أكثر مما أهمنى ما قد يحدث من جانب الأعراب فما كنت أعتقد أن هؤلاء الأعراب سيعتبروننا لصوصا .

وفى المساء استطعنا أن نضم إلى جماعتنا رجلين جاء بهما على الى المخيم وهذان الرجلان هما (صالح) و (صدر) ، اللذان قبلا أن يرافقانا

إلى (حسى) وكانا قـــد زاراها فى السنة الماضية .

وأخذنا أهبتنا للسفر فى صباح اليوم التالى .. ولم أستطع المساهمة مع الآخرين فى الإعداد للرحلة فقد كـنت منهوك القوى فتمددت على الرمل البارد وأخذت أحملق فى النجوم وجاء ابن قبينة فجلس الى جوارى ولم يتكلم ولـكننى كنت سعيدا بوجوده معى.

وقد أخبرنى (صدر) أن لابن سعود مركزا فى (حسى) فكان من غير المعقول الاستقاء هناك أو العبور دون أن نعرف . وساءلت نفسى ترى ماذا سيقول الملك عندما يعـلم أننى عبرت الصحراء دون إذنه وخاصـة إذا عرف اننى الانجليزى الذى سبق له أن رفض منحه الإذن بالرحلة من سنتين ،

الباب الحادى عشر

فى الربع الخالى مرة ثانية

بدأ النهار كئيباً وعاصفاً ، وارتفعت الشمس إلى كبد السماء ، دون أن تهب الأرض دفئا ، وأحضر ابن قبينة تمراً وبقايا خبز من الليلة الماضية ودعانا للأكل فرفضت ، وقبعت خلف صخرة اتخذت منها ملجأ من العواصف والزوابع .

وساءلت نفسى ، أى حق لى فى دفع مثل هؤلاء الرجال الذين وضعوا ثقتهم فى ، إلى مواطن الموت المحقق .

وساعدنى ابن قبينة فى اختيار المواد والكميات الضرورية منها لرحلتنا ، وتسلقنا الربوة الصخرية الواقعة قرب البئر وأرشدنا عم (صدر) الشيخ إلى الطريق التى سنسلكها ، وقد تخيلته وهو يشير لنا اليها بكلتا يديه نبياً يتنبأ لنا بالهلاك .

ومضت ساعتان من السير الجاد وأشار (صدر) و (صالح) إلى آثار خمسة جمال . وأخذنا نتكهن لمن تكون . وبعد نقاش رجح (صدر) ، و(صالح) أنها لآل كرب . ثم سألنى محمد أن أحكم من آثارها أيها أحسن ، فأشرت مسرعا إلى خط من الآثار . فضحك الجميع إذ كان أسوأ الإبل ، أما هم فرغم عدم رؤيتهم للإبل فانهم استطاعوا الحكم عليها من آثارها

وأتى الغروب ، فأقمنا خيامنا على الجانب الشمالى من بعض التلال الكلسية المنخفضة . وبدا أن آل رشيد لم يثقوا فى آل صعر الذين تركناهم فى (منوخ) ولهذا رجع (عمير) يتتبع آثارنا ، بينما رقد ابن غبيشة متخفياً يراقب السهل ، واستأنفنا سيرنا فى صبيحة اليوم التالى ومع شروق شمسه .

وكانت الريح عاتية قارسة البرودة وسررنا لذلك فستمحوا آثارنا وتحمينا من المطاردة . واستمر سيرنا حتى جن الليل فتلمسنا طريقنا بحثاً عن الحطب فقد كنا نشعر بالجوع والبرد معاً ، وأشعلنا النار وجلسنا حولها نأكل التمر ونحتسى القهوة حتى مطلع الفجر . ثم عدنا للمسير مرة أخرى .

وحدث فى أثناء سيرنا أن لاح لنا وعل ذكر ، فاعتزمت اصطياده حتى أكون رابع ثلاثة من الانجليز اصطادوا وعلا ، ولكننى أخطأته وقد علمت فيما بعد أو بعد مرور عام على هذا الحادث أن خطئى فى صيد الوعل أنقذ حياتنا من كارثة ، فقد أنبأنى ابن الكمام عندما انضم الينا على ساحل الهدنة ، أنه كان فى (معين) عندما وصلت الأنباء بأن المسيحى وبعض آل رشيد يستعدون لعبور الصحراء ، فأرسل حاكم (الجوف) ، سيف الاسلام الحسين بن الامام يحيى امام اليمن ، فرقتين ليقبضوا علينا أو يوردونا حتفنا ، ولو أننا اصطدنا الوعل لاضطررنا إلى التوقف يوماً لتجفيف لحمه وهكذا كنا سنقع فى أيدى رجال الحاكم .

ومرت أيام سته وانهارت ابلنا من التعب والمشقة وبدأ القلق يساورنى فأمامنا نحواً من عشرة أيام للوصول إلى (الحسى) التى ما كنت اتخيل أن نصل اليها سالمين .

وفى صباح اليوم السابع عثرنا على مرعى خصيب ففككنا أحمالنا وتركنا الابل ترعى ، وأعـــد لنا الطعام ابن قبينة وابن غبيشة ثم انطلقا للصيد ، ولكنهما عادا ، وقت الغروب ، بخفى حنين .

وفى الصباح لاحظنا أن (الحمراء) وهى خير نياق الجمل ، قد شردت ، وهذه عادة الإبل ، فلا ترضى إحـداها أن تظل فى مكانها طويلا مهما بلغ المرعى من خصوبة . وتحضرنى ملاحظة أدركتها من طول عشرتى للبدو ، وهى خاصة بالنوق ، فالبدو يسمحون للنافة بارضاع صـغيرها ، ستة أسابيع تقريباً . ثم بعد ذلك يخفون ضرعها ويسمحون لوليدها بالرضاعة قبل أن تحلب صباحا ومساء ويمنع الوليد من الرضاعة بعد الشهر التاسع وتظل الناقة حلوباً مدة أربع سنوات على ألا يقربها ذكر . وتستطيع النافة أن تلد ست مرات فى خلال عشرين عاما .

وشاهدنا عبر القفار التى قطعناها بضع بيضات للنعام ، مما يدل على أنه كان يعيش فى هذه القفار ثم انقرض ، وعندئذ فكرت فى مصير الوعل العربى والريم ، فأيقنت أنهما سينقرضان كذلك ، متى عم اختراق السيارات للصحراء الجنوبية وهذه بلاشك خسارة كبرى لهواة الصيد .

وحدث أن وقعت منى عصاتى ، وإذا بابن قبينة يبادرنى قائلا : حقيقة يامبارك إن هذا لكثير . ولو أننى كنت مكانك لطلقتها . حالما أعود ، إن البدو يعتقدون أن الرجل إذا أوقع عصاه فمعنى ذلك أن (امرأته تخونه !).

واجتزنا سهل (الجليدة) وهو سهل يتصل بسهل آخر يسمى (أبوبحر) الذى يمتد بدوره مع السهول الممتدة من الحسا حتى (جـــبرين) ، ومعنى

الوصول إلى (الجليده) أننا أصبحنا فى منتصف الطريق إلى (الحسى) .

ووصل بنا السير إلى بنى (معارض) وشاهدنا أكماتها الجبلية فأيقنا أن صعوباتنا الحقيقية على وشك أن تبدأ ، وبعد أن عبرنا بنى معارض ، صرنا على حافة مراعى (هاد) الجنوبية ووجدنا آثار أقدام لم يمض عليها أكثر من أسبوع . وقد أصبح لزاما علينا أن نراقب الطريق منذ الآن كى نأمن على أنفسنا .

واظلمت الدنيا وبدأت السماء تمطر ، ولم نجرؤ على إشعال نار . وفجأة أشار الينا ابن غبيشة أن نلتزم الصمت . ولاحظنا ان الإبل توقفت عن المضغ . وأخذت تحدق جميعها فى اتجاه واحد ، وأخذنا اهبتنا ولم يتطرق النوم إلى أجفاننا ، وفى الصباح ظهر أن ذئباً كان يحوم حول مخيمنا !!

واستأنفنا السير ، وكان (صدر) و (ابن غبيشة) يتفحصان الطريق أمامنا ووصلنا (الحسى) وقد صادفنا فى الطريق اليها ثمانية من قبيلة (اليم) ، يمتطون لإبلهم ، وأصبحنا على بعد ياردات منهم واستطعت أن أرى أحدهم وهو عجوز ، أمامى ، كان يخفى وجهه خلف ملفحته ولكننى كنت المح الحقد فى عينيه وبدأتهم بالسلام وأضاف محمد قائلا : لقد جئنا مسالمين ونحن من آل رشيد من الصحراء الشرقية ، وفى طريقنا لزيارة ابن سعود .

وحدث ونحن فى (الحسى) أن كنا نروى الإبل ونملأ جلود الماء فسمعنا من بعض النسوة أن حارس ابن سعود وابنه كانا قريبين من مكان البئر ، وأنهما ذهبا بحثاً وراء جمل شارد واقترح (صدر) و (صالح) ان نتعجل السفر قبل ان يعودا .

وانتوينا الذهاب الى « السليل » ولسوء الحظ ان عرفنا حارس البئر فعاملنا بقسوة وأصر على الذهاب معنا إلى «السليل» لتسليمنا للسلطات هناك ليروا فينا رأيهم .

وسرنا على طول وادى « الدواسر » وفى طريقنا إلى « قرية » مقر الأمير مررنا بحقول حنطة وشعير . وبيت الأمير من اللبن كبقية بيوت القرية واستقبلنا الأمير فى تودد ، ثم سار بنا إلى منزل خال من السكان وأفهمنا اننا سنبقى فى « السليل » حتى يصله رد من ابن سعود .

وتحدثنا إلى الأمير عن رحلتنا وبعد ان استمع اليها بادرنا بقوله : إنكم لجد محظوظين إذ وصلتم إلى هنا سالمين ، لم تكن ثمة أمل لكم فى النجاة . فالصحراء التى جئتم عبرها مليئة بالأعراب ، ومن حسن طالعكم ان انتقل أكثر هؤلاء الأعراب غربا إلى « العرض » حيث المرعى ولو ان أعرابياً واحداً شاهدكم لأكثر من الصياح والصراخ فسيعلم أنكم من الجنوب ، وقد أذن ابن سعود لقبائله ان تسطو على أبناء الجنوب وتقتل من تقابله منهم، لقد كنتم عرضة للقتل فوراً . ثم تطلع الى وقال : تالله انك لجد محظوظ .
وانقضى يومان على هذا وزارنى الأمير فى غرفتى ليخبرنى ان ابن سعود أمر بتأخيرى وسجن رفاقى واحتجاز بنادقنا وخناجرنا وأمرنى أن أظل حيث أنا بعد أن ترك أحد رجاله ليقوم على حراستى ، وفكرت فى إرسال برقية لابن سعود وسمح لى أخيراً بذلك .

وعند غروب شمس نفس اليوم فتح باب غرفتى عبد أسود كبير بيده أصفاد وأمرنى أن أنهض وأن أذهب معه فى التو وسرت معه الى بيت أمير « السليل » .

كان الأمـير فى غرفة غاصة بالناس ودخلت وألقيت السلام ، فرد على الأمير وطلب منى الجلوس قبالته ثم سألنى من أين وكيف اتيت.؟ فذكرت له انى قادم من حضرموت وأنى كنت استكشف وأصيد الوعل فى الربع الخالى ونفذ ماؤنا فجئت الى (الحسى) وأضفت ان آل رشيد الذين معى لم يعرفوا وجهتى. وسألنى الأمير كيف عرفت طريقى الى (الحسى) فى تلك الليلة،وأجبت بأن عبد الله فليلبى قد عين مكانها على الخريطة . وتحملت وحدى مسئولية أى خطأ يكون قد وقع .

وأديرت علينا أكواب الشاى والقهوة. وقال الأمير بضرورة سفرنا إلى (الدمام) فركبت معه حتى وصلنا واحة تضم قصراً كبيراً ، وتبعت الأمير إلى داخل القصر وطمأننى الأمير ، وقال إنه بعث ببرقيتى إلى الملك. ثم غادر غرفتى مودعاً .

الباب الثانى عشر

من السليل إلى أبى ظبى

كانت غرفتى فى أعلى القصر وبدأ الليل طويلا جــداً إذ أننى لم أنم وأخذت الأفكار السوداء تتلاطم فى رأسى ، طافت بذاكرتى صورة صبية ثلاثة رأيتهم جالسين خارج قرية فى تهامة ، وكان كل منهم يحتضن لفافة ملطخة بالدماء تخفى بقية يده اليمنى . لقد أمر الملك بقطع أيديهم دون جريرة اللهم إلا أنهم اختتنوا بطريقة لم يقرها الملك ! وكيف أنسى العينين المليئتين بالألم ، أو الوجه الشاحب لذلك الشاب اللطيف ذى المنظر الرقيق الذى مد يده إلى عبد الأمير المتردد فى التنفيذ قائلا : هاك يدى ! إقطعها فلست جبانا.

كنت أخشى أن ينزل برفاقى عقاب كهذا جزاء مساعدتهم أجنبى على دخول السعودية دون إذن من الملك . وفيما أنا غارق فى وساوسى دخل الأمير وابتدرنى قائلا. لقد تفاهم عبدالله فيلبى مع الملك بشأنك ، فأمر جلالته باطلاق سراحك ، وسمح لك باستكمال طريقك ، وقد سرنى ما سمعت ولكن الأمير ما عتم أن سأل : والآن إلى أين أنت ذاهب لأعلم الملك ؟ فأجبت : إلى ساحل الهدنة فقال : السيارة بانتظارك لتعيدك إلى (السليل) .

وعدنا إلى وادى (الدواسر) وقصدنا بيت أمير (السليل) حيث كان بقية الرفاق فى انتظارنا وقضينا الليل مع الأمير ، وقص علينا أحد الأعراب قصة مقتل ابن دويلان ، وقبل أن يفرغ من حديثه قال شامتا : لقد سمح لنا الملك بقتل هؤلاء الجنوبيين ، وسوف نقوم بأرزهم وسلبهم وسنقتل كل

جنوبى نراه . ثم وجه كلامه إلى قائلا : والله إنك لذو حظ عظيم إذ لم نجدك قبل أن تصل إلى هنا .

غادرنا (السليل) فى التاسع والعشرين من شهر يناير ، ووصلنا إلى بلدة (ليلى) بعد ثمانية أيام .

وهذه المدينةالصغيرة تضم منازل وبنايات منبسطة السطوح ، مقامة من اللبن ويبلغ تعدادها حوالى الأربعة آلاف نسمة ، ووصلنا إلى قصر الأمير واسمه (فهد) ، وهو رجل مسن ، متجهم الوجه ، وتبادلنا التحية وفهمت منه أن عبد الله فيلبى وصل فى اليوم السابق من الرياض وأنه انطلق يبحث عنى ، وكان واضحاً أن الأمير مستاء من وجودى ، وعند غروب الشمس أذن المؤذن للصلاة ، فسارع الجميع إلى المسجد لأدائها ، وتجمع حولى صبية صغار أخذوا يعيرونني بأنى كافر .

ووصل فيلبى بعد ساعة تقريباً ، وحدثنى عما جرى بين الملك وبينه بشأنى حتى تمكن أخيراً من الحصول على أمر باطلاق سراحى ، وأقام الأمير خيمة لعبد الله فيلبى خارج قصره ، وقصدت اليها معه حيث سهرنا حتى الفجر .

وأغاظنى سوء استقبال الأمير لى وطلب منى فيلبى أن أضبط أعصابى ، فهم متزمتون ، تصل درجة تزمتهم حد اعتبار الفناء خضوعاً لإغراء الشيطان ، يستحق المرء عليه الجلد .

وسافر فيلبى الى (قرية) للبحث عن الآثار وبقيت ورفاقى فى (ليلى) أربعا وعشرين ساعة أخرى .

وحاول آل رشـيد ابتياع المؤن للرحلة . ولـكنهم تعرضوا للإهانة بسبب وجودى معهم . وقرر أصحاب المحال التجارية أن تغسل النقود علناً قبل أن يمسوها بأيديهم وأنذرنا الأمير أنه لن يشجع أحداً على السفر معنا.

وكانت الكراهية التى واجهتنى فى (ليلى) تجربة مزعجة . ولـكنها لا تقوم على أسس سليمة من الدين الإسلامى ، حقا إنها لا تختلف عن الـكراهيات الجديدة التى أقامتها المدنيـة الحـديثة على أساس من التمييز العنصرى والتفرقة فى اللون والقوميات والطبقات ، ولـكنى أعلم أن الإسلام دين سمح ، وكان العرب فى عصوره الأولى متسامحين الى أبعد الحدود . ولعل كراهية الأهالى فى (ليلى) كانت لاعتبارى متطفلا أمثل مدنية أجنبية تتعلق بالمسيحية. فى الوقت الذى يتحكم فيه الغرب المسيحى فى القسم الأكبر من العالم الإسلامى .

واتخذت طريقى الى واحة (جبرين) معتمـداً على الخريطة التى رسمها عبد الله فيلبى والبوصلة التى أحملها . واضطر الجميـع الى اعتبارى دليلهم فى هذه الرحلة .

وكم تمنيت أن أجـد أعرابا فى (جبرين) فسنكون بحاجة الى طعام والى دليل يرشدنا الى مواطن الماء فى طريقنا الى (أبى ظبى) أى مسافة أربع مائة ميل .

وتركنا (ليلى) فى السابع من فبراير ، وقضينا ثمانية أيام حتى بلغنا واحة (جبرين) بعد أن عبرنا صحراء (الدهناء) وفى جبرين روينا جمالنا وتركناها ترعى كما تشاء وتهوى ، واغتسلنا من ماء البئر ، وقد لاحظت أن الأعراب حافظوا على حشمتهم فلم يكشفوا عوراتهم .

وانطلق محمد وعمير يبحثان عن أفراد قبيلة (المره) وهى إحدى قبائل نجد الكبرى ، وعددهم يتراوح بين خمسة وعشرة آلاف نسمة ، وهم الذين قادوا فيلبى عبر الربع الخالى ولكنهم قليلو التجوال فى الصحراء . فهم من هذه الناحية ليسوا كآل رشيد الذين تجدهم من حدود اليمن الى عمان ومن ظفار حتى الرياض والحسا وساحل الهدنة .

وتشتهر قبائل (المره) بأنهم من أمهر قصاصى الأثر فى السعودية والحكومة تستخدم أبناء هذه القبيلة لاقتفاء أثر المجرمين والتعرف عليهم من آثار أقدامهم .

وعاد محمد وعمير ولم يجدوا أعراباً ، وسألنى الجميع الى أى مدى أستطيع القيام بإرشادهم . ليس على الخريطة التى معى سوى بئر واحدة تدعى (ضبى) وهى تبعد غربا عما يسمى (سبخة مسطى) بحوالى الستين ميلا .

وقد سبق للعوف أن حدثنى عن هذه السبخة فقال : إن الإبل تغرق فيها ولا أمل لها فى الخلاص منها . غير أنها لا تبتلع الناس او الحيوان كما تفعل رمال أم السموم وقال لى محمد : قدنا الى السبخة وسأتولى بنفسى القيادة الى أبى ظبى .

وقضينا أياما تعسه فالإبل أوشكت على الهلاك وكاد ماؤنا ينفد وكثيراً ما هبت علينا العواصف ونحن على الطريق لا نجد مأوى على ذلك السهل العارى ، فالبرق يكاد سناه يذهب بالأبصار والرعد يكاد صوته يصم الآذان .

مضت أيام ثمانية على مغادرتنا (جبرين)وأيقنت أننا لا بد وأن نكون على مقربة من بئر (ضبى) وكنا كذلك فعلا . وكان ماؤه ملحاً فلم نطعمه . أما الإبل فقد شربته مكرهة لظمئها الشديد .

ووصلنا (سبخة مسطى) فقررنا أن نعبرها من أطرافها حتى لا تغوص الإبل فيها ، وخاصة بعد المطر الغزير الذى هطل عليها ، وأصبح أمامنا نحوا من مائتى ميل حتى نصل الى ، (أبى ظبى) والماء الباقى لدينا غير كاف ، واقترحت فى يأس البحث عن واحة (لوى) وبعد مرحلة شاقة استطعنا أن نصل اليها وكان ذلك فى اليوم الثامن والعشرين من شهر فبراير ، وفى الرابع من شهر مارس كنا فى قربة (بلاغ) ووجدنا مخيما للمناصر على حافة واحة (لوى) وقبل أحد أفراده أن يكون دليلنا الى (أبى ظبى) .

كنت تواقا الى اكتشاف هذه الواحة الشهيرة ، لولا أن الإبل كانت منهكة وكنا متعبين ، وغادرنا (لوى) فى الرابع من شهر مارس وأصبحت أبو ظبى على مسافة مائة وخمسين ميلا من موقعنا ، ووصلنا الى الساحل وسرنا شرقاً عبر أرض قفر ، وكانت السهول المالحة تمتد الى البحر وسارت إبلنا المنهوكة فوق أرض لزجة ووصلنا الى (أبى ظبى) وكان ذلك فى اليوم الرابع عشر من مارس .

وبدا أمامنا قصر منيف ، يتيه بعظمته على المدينة الصغيرة المهدمة التى تمتد على طول الشاطىء ، وليس بها إلا القليل من النخيل ، وذهبنا الى ذلك القصر وجلسنا خارج جدرانه منتظرين الإذن بالدخول .

الباب الثالث عشر

ســاحل الهدنة

ظلت أبواب القصر موصدة وانخنا إبلنا وأنزلنا الأحمال من على ظهورها ، ثم تمددنا لننام فى ظل حائط القصر .

وخرج أعرابى بعد الظهر من باب خلفى وناداه محمد ، وسأله أهل الشيوخ (جالسين) وهو تعبير عربى بمعنى هل هم على استعداد لاستقبالنا فأجاب الأعرابى : كلا ليس بعد . وطلب منه محمد أن يبلغ الشيوخ أن إنكليزيا قد وصل من حضرموت وأنه يبغى مقابلتهم، وسأل الأعرابى وأين هذا الانجليزى فأشار محمد إلى .

وبعد هذا بنحو من نصف ساعة خرج علينا أعرابى شيخ وجه الينا بضع أسئلة ثم قفل راجعا إلى القصر وعاد بعد قليل ليدعونا الى الدخول وسار بنا الى حيث كان (شخبوط) حاكم ابى ظبى وأخواه هزاع وخالد وقد نهض الجميع عند دخولنا فتبادلنا التحية وجلسنا . كان شخبوط رجلا ضئيل البنيان شاحب اللون ذا تقاطيع منتظمة ولحية سوداء قد شذبها فى عناية وكان مجاملا، لطيف المعشر، متحفظا نوعا ، يتكلم فى هدوء ويتحرك فى حذر. ونادى شخبوط رجلا من أتباعه دار علينا بالقهوة والتمر ثم سألنا عن

رحلتنا ، ولما ذكرت له أنى زرت ضواحى (اللوى) فى العام الماضى عقب هزاع على هذا بأنه سمع إشاعات عن مسيحى كان هناك ، ولكنه لم يصدق ذلك فليس من المعقول أن يأتى اوروبى ثم يذهب دون أن يراه الناس ، والبدو لا يعتمد كثيرا عليهم فى مثل هذه الأحوال مما جعلنا نعتقد أنهم كانوا يتكلمون عن توماس الذى عبر الصحراء منذ ستة عشر عاما .

وانتهى حديثنا وسار بنا الشيوخ الى البيت الذى أعد لنزولنا وهو منزل كبير متهدم ، فتسلقنا سلما متهالكا إلى غرفة خاوية ، قد فرشت بالسجاد استعدادا لاستضافتنا . وأمر شخبوط خادمين من أتباعه كى يعنيا بنا .

وفى المساء وصل الخدم يحملون الطعام الوفير فأكلنا حتى شبعنا وجلسنا بعد الاكل وجلس الخدم بيننا دون كلفة فالخادم فى البيت العربى فرد من أفراد الأسرة وليست هناك طبقية كالمعروفة لدينا ، ونظرت إلى البساطة العادية التى تتسم بها الغرفة ، فبدت فى نظرى أفضل من أى أثاث فاخر .

وعشنا عشرين يوما فى (أبى ظبى) وهى مدينة صغيرة ، يبلغ تعدادها الفى نسمة ، وكان الشيوخ يزوروننا كل يوم يتقدمهم (شخبوط) بشكله الجليل وعباءته السوداء واعتدنا طيلة اقامتنا فى (أبى ظبى) أن نتجول فى سوق المدينة أو على شاطىء البحر .

وحدث أن زارنا فيمن كان يزورنا رجل من آل رشيد يدعى (بخيت الدهيمى) وكنت قد سمعت عن شجاعته عند ما كنت على الساحل الجنوبى وعندما علم (بخيت) بهذا أننى ذاهب الى (البوريمى) أعلن استعداده لمرافقتى ، وتدبرت الامر مع (شخبوط) وطلبت إليه أن يرسل (بخيتا) قبلنا ، ليبلغ زايد بن سلطان أخا شخبوط فى البوريمى أننا قادمون .

كنت مشوقا لاختراق عمان وزيارة المواقع التى وصفها لى (سطيون) فى العام الماضى ، واعتقدت أن فرصتى كى أذهب إلى هناك ، ستكون من البوريمى وكنت آمل ان يستطيع زايد مد يد المعونة إلى فأحقق أمنيتى أو على الأقل ، أقوم بعمل بعض التحريات المفيدة عن عمان وأنا فى البوريمى .

وغادرنا أبو ظبى ومعنا الدليل الذى زودنا به شخبوط . وكان ذلك فى اليوم الثانى من شهر ابريل ووصلنا البوريمى بعد أربعة أيام قطعنا فيها مائة ميل .

وهناك حادث طريف يلذ لى أن أقص قصته . . فهو يبين ناحية هامة من جوانب النفس البدوية . . فى مساء اليوم الذى سبق وصولنا واحة (البوريمى) كنت مستلقيا على الأرض فى نشوة أراقب ابن قبينه وهو يشوى بعض الفطر والبطاطا ، وحدث أن داعب ابن غبيشه قدمى فرفسته بشكل غريزى بحت فأصابته الرفسة فى جنبه فارتمى أرضا وأسرعت نحوه مضطربا ، ولكن ابن قبينة بادرنى قائلا إنه بخير واعتدل ابن غبيشه فى جلسته وقال لى معاتبا لماذا تحاول قتل أخيك ؟ فاعتذرت اليه فضحك قائلا : إنى لأعلم انك ما كنت تقصد ما فعلت وسألت ، ابن قبينة ماذا كان يفعل لو قتل ابن غبيشة حقا ، فأجاب على الفور : لو أن هذا حدث لقتلتك وحاولت الاعتراض قائلا : ولكن هذا أمر غير مقصود فأجاب : لن يغير ذلك من الأمر شيئا . وهنا أدركت ان البدوى يطلب حياة مقابل حياة سواء كان هناك قصد أو لم يكن ، وقد يقبل الفدية اذا هدأت ثائرته وكان القتل دون قصد .

وفى صباح اليوم التالى وصلنا (موبقع) إحدى القرى الثمانى الصغيرة فى واحة (البوريمى) وكان بها قصر زايد ، وشاهدت نحوا من ثلاثين اعرابيا جلوسا فى ظل شجرة شوكية أمام القصر ، وقال لنا دليلنا إن الشيخ جالس

فاتجهنا نحوه وحييت الجمع وتبادلت الأخبار مع زايد وهو رجل تبدو عليه مخايل الفطنة يتميز عن رفاقه بعقاله الأسود وبالطريقة التى يلبس بها كوفيته منسدلة على كتفيه بدلا من أن تكون ملفوفة حول رأسه. وكان ذا شهرة كبيرة بين البدو يحبونه لبساطته ودماثة خلقه وقوته الجسمانية الخارقة.

وقدم لنا خادم القهوة والتمر كالعادة وسألنى زايد عن رحلتى واهتم كثيرا عندما علم باجتيازى لبلاد الدورو فى العام الماضى. وعجب كيف استطعت أن اجتاز بلادهم، فأفهمته أنى ادعيت أنى تاجر سورى فقال ضاحكا: لو فعلت هذا معى لاكتشفت أمرك فى الحال.

وبقيت شهرا فى ضيافة زايد، وحضرت مجلسه حيث يتوافد الناس ويبثونه شكاواهم فيفصل فيها.

كان زايد ممثلا لشخبوط فى البوريمى. ولكنه كان يحكم ستا من قراها بينما يحكم القريتين الأخيرتين سلطان مسقط.

وكان لكل شيخ من شيوخ ساحل الهدنة فرقة من الاتباع المسلحين من رجال القبائل الا ان شخبوط وحده كان ذا سلطة ونفوذ بين القبائل كلها.

وكانت شركة النفط العراقية قد وقعت اتفاقيات مع سلطان مسقط وشيوخ ساحل الهدنة، تشمل الاراضى المحيطة بواحة البوريمى، وقد حاولت انجلترا اقناع القبائل بقبول هذه الاتفاقيات، ولكن ذلك لم يكن بالأمر السهل، فلم يكن لزايد نفوذ جنوبى واحه البوريمى ونفوذ السلطات على هذه المنطقة كانت اسميا فحسب ولم يكن له ممثل قوى فى تلك البقعة، وأصبح كل شيخ يحاول تأكيد استقلاله معتقدا أن بوسعه الحصول على شروط خاصة لنفسه برفضه

الاعتراف بأى سلطة فوق سلطته ، لذلك بدت فرصة ذهابى إلى عمان صعبة بالنسبة الى .

وأكثر سكان عمان من (العبادية) وهم فريق من الخوارج الذين انشقوا على المسلمين أيام الخليفة الرابع على بن أبى طالب . ومنهم سلطان مسقط الحالى الذى حكمت أسرته عمان منذ عام ١٧٤٤ ، ولكن سكان عمان كانوا دائماً ضد أسرة (أبو سعيد) الحاكمة مماحدا بالقبائل الغفرية والحناوية إلى القيام بالثورة عام ١٩١٣ وانتخاب سالم بن راشد الخروصى إماما ، ففقد سلطان مسقط كل سلطة له فى داخل البلاد ، وفى سنة ١٩٢٠ اغتيل الإمام فانتخب العمانيون محمد بن عبد الله الخليلى إماماً ، ثم وقعت معاهدة (السيب) بين السلطان والشيوخ فى عمـــان لا بين السلطان والإمام كما هو مفروض (وكان هذا بتدخل الانجليز طبعاً) . وفى هذه المعاهدة تعهد السلطان بعدم التدخل فى شئون عمان الداخلية .

والإمام محمد بن عبد الله رجل محـافظ يكن العداء الشديد للسلطـان وللانجليز ، ولهذا السبب كانت رحلتى داخل الأراضى العمانية أمراً بالـــغ الخطـــورة .

غادرنا (مويقع) فى أول مايو ومعنا أربعة من أتباع زايد . كانت البلاد جميلة تمر بها عدة مجار مائية تمتد من أسفل الجبال وتنتهى بالصحراء مغطاة بأشجار الغاف والأقاصيا التى كانت خير طعام لإبلنا ولكن الطقس كان حاراً .

ووصلنـا الى (الشارقة) فى العاشر من شهر مايو واستضافنى (نزيـل

جاكسون) الضابط السياسى البريطانى فى ساحل الهدنة ، وودعت رفاقى فى (الشارقة) مؤملا أن أراهم مرة ثانية بعد أربعة أشهر ، وذهبت إلى (دبى) حيث نزلت ضيفاً على (أدوارد هندرسون) الذى كنت معه فى سوريا خلال الحرب وهو موظف الآن بشركة نفط العراق ، وتعتبر مدينة (دبى) أكبر مدينة فى هذه المنطقة وسكانها يصلون الى خمسة وعشرين الف نسمة .

وخطرت بذهنى فكرة السفر الى البحرين وكان ذلك من السهل باستعمال الطائرة من الشارقة ولكننى فضلت استخدام القارب الذى قطع المسافة فى أحد عشر يوما بدلا من أربعة كما جرت العادة ، ولعل السبب فى ذلك ان القبطان كان نصف اعمى وقد قضى معظم وقته نائما على مؤخرة السفينة ومساعده الزنجى يصف له مايراه فيمده بارشاداته .

وتراءت لى البحرين أخيرا، لقد أبحرت فى قارب لأنى أردت اختبار العرب كبحارة ، فقد كانوا يوما شعبا يميل الى ركوب البحار، تبحر سفنه حول سواحل الهدنة الى جزر الهند الشرقية وربما الى أماكن أقصى من تلك ، وكان ساحل الهدنة الذى خلفته ورائى يدعى ساحل القرصنة فكان مخوفا ثم كان ثمة سبب أعمق من كل هذا . حدا بى الى استخدام القوارب لا الآلات التى أصبحت تسيطر على عالمنا، لقد كرهت الآلات طيلة حياتى، ولا زالت افكارى تعود بى إلى الوراء أيام أن كنت بالمدرسة وكنت أشعر بالاستياء اذا ما قرأت عن شخص طار فوق المحيط الأطلسى أو سافر عبر الصحراء فى سيارة .

إنى لم أذهب إلى الصحراء العربية كى أجمع النبات أو أرسم مصورا . فهذه كلها أمور طارئة . لقد ذهبت الى هناك أنشد السلام وسط قسوة الصحراء ومع زمالة سكان البادية .

ووصلنا البحرين فى الثامن والعشرين من شهر مايو .

الباب الرابع عشر

فى البــــوريمى

وعدت من انجلترا فى أواخر شهر أكتوبر . . ونزلت فى (دبى) ، كان مسلم وابن الكمام ينتظرانى ، وقد أتيا من اليمن لينضما إلى فى رحلتى .

وغادرنا (دبى) إلى (أبى ظبى) فى السابع والعشرين من الشهر وكنت معتزما أن أغادرها إلى البوريمى فى الحادى والثلاثين من الشهر ، ولكن هطول الامطار الغزيرة حال بيننا وبين السفر فنصحنا شخبوط أن نبقى يوما آخر فى (أبى ظبى) . وفى أول يوم من شهر نوفمبر بدأنا رحلتنا فوصلنا (الموبقع) بعد أربعة أيام ، واستقبلنا زايد هناك وأنبأنا أن ابن قبينة وابن غبيشة وعمير سيعودون حالما يسمعون بوجودنا .

ووصل الثلاثة فى وقت متأخر من الليل، وعلمنا منهم أنهم قضوا الصيف فى نهب القبائل المعادية. والخدمة كجنود باحثين عن الثروة مع الشيوخ المحليين

كنت تواقا إلى استكشاف واحة (اللوى) قبل أن أبدأ رحلتى إلى عمان ، وقد نصحنى زايد أن أصطحب شيخا من آل رشيد يدعى (ابن طاهى) كدليل عرف عنه أنه يعرف كل زاوية وثقب ماء فى الصحراء . وقد سر ابن قبينة من هذا الإختيار وأيده .

وغادرنا (مويقع) فى الرابع عشر من شهر نوفمبر وقضينا قرابة الشهر نتجول عبر (لوى) حتى (ضفاره) وكانت رحلة ممتعة .

وسرنا فى القفار حتى بلغنا بئر (الحمة) وهناك عثرنا على آثار رجال وإبل ، مضى عليها يوم واحد . وقرر رفاقى أن هذه كانت آثار (على المرسى) وقافلة مؤلفة من ثمانية واربعين رقيقا أخذهم معه إلى الأحساء ويبدو أن الثروة الضخمة التى ظهرت فى السعودية عن طريق شركة أرامكو الأمريكية كان لها أثر كبير فى رواج تجارة الرقيق فى هذه البلاد .

وحدث بعد يومين أن ذهب رفاقى لسقيا الإبل من بئر خيمنا إلى جوارها وفجأة سمعت طلقات وصياحا ، وعاد الرفاق فى عجلة من امرهم وأخذوا يستحثوننى على الركوب ، وفهمت أخيرا أن بعض اللصوص هاجموا البئر وأننا بسبيل مطاردتهم .

ولما تمض ساعتان حتى كنا قد لحقنا بهم، وتقدم ابن طاهى منهم وصاح : أيها اللصوص ، من آل رشيد أنتم أم عوامر . . أصدقاء . . أم أعداء ؟ فأجابه اللصوص : نحن أصدقاء من المناهل وتقدم أحدهم الى الامام وخاطب ابن طاهى الذى رجع الينا قائلا : إنه جمعان بن دويلان أخو (البس) الذى قتله (اليم) فى العام الماضى ، وذهبنا اليهم وتبادلنا معهم التحية والأخبار فعلمنا منهم أنهم سرقوا جمال المناصر والمناهل حلفاء آل رشيد ، لهذا لم يكن المناصر بذى أهمية لدينا ، وهمس ابن الكمام فى أذنى أن أعرض عليهم خمسة وعشرين ريالا ليعيدوا الجمال،وسيكون هذا العمل مبعث سعادة لزايد، ولكن جمعان أبى،وهو واثق أننا ان نسلبه الجمال غصبا، ثم ودعونا وانطلقوا

وعندما عدت الى (مويقع) أخبرت زايداً بما حدث فقال : بالله يامبارك لو أنك قتلت جمعان لمنحتك خيرة إبلي فهو اكثر اللصوص ازعاجا لنا .

وتناولنا العشاء فى قصر زايد وبعد العشاء امتلات الغرفه بخدم زايد وكانوا يحملون الصقور على أيديهم وهى صقور مدربة على الصيد ، ولا تكاد تفارق صاحبها حتى ساعة الأكل والنوم ، ويسمى الأعراب الصقر شاهينا وجمعها شواهين ، وهناك نوع آخر من الصقور يسمى (الحر) أو الصقر المنقب وهو يساوى فى ثمنه ضعف ثمن الشاهين وفهمت من أحدهم أن اهل نجد يفضلون الحر على الشاهين لحدة إبصاره وإن كان الشاهين أسرع وأشجع .

ودخل علينا زايد فنهض الجميع احتراما له ، وبعد أربعة أيام أخبرنا زايد اننا سنقوم برحلة صيد فى الصحراء الجنوبية الغربية ، تستغرق حوالى الشهر ، وانطلقنا من القلعة ومعنا خمسة وعشرون من أتباع زايد وسرنا عبر الصحراء .

واستعد حاملو الصقور ونادوا كلابهم السلوقية متوقعين أن يجدوا طائر (الحبارى) وهو طائر اليف بحجم دجاج الحبش يصل الجزيرة العربية من فارس والعراق وسوريا فى بداية الشتاء .

وفجأة أشار لنا أعرابى أنه عثر على آثار حديثة وأدرنا جمالنا نحوه ووجدنا طائراً يرتفع فى الجو على بعد أربعمائة ياردة وأزاح أحد الرجال الغطاء عن راس صقره وأطلقه فلحق بالطائر فى سرعة عجيبة ثم صاح أحدهم لقد سقطا ، فأخذنا نعدو فوق الرمال .

وعثرنا على الصقر فى حفرة ، وكان ينقر طير الحبارى . فنزل أحد الرجال عن جمله وفتح رأس الطائر وأعطاه للصقر . وأشار زايد إلى بعض

البقع الزيتية على الأرض وسأل : أترى هذا ؟ إن طـــير الحبارى يرشها على من يهاجمه . وإن هذه المادة إذا دخلت عين الشاهين أعمتها فى الحال . أما إذا وصلت إلى ريشه فإنها تحيله إلى خليط قذر يعوقها عن الطيران .

وسألت زايدا كم طائرا يستطيع الصقر أن يصيده فى اليوم . فأجاب بأن الصقر الجيد يستطيع أن يصيد ثمانية أو تسعة فى اليوم ـ هل ترى أين تقاتلا ؟ ثم أشار إلى خط من الريش طوله حوالى الخمس والعشرين ياردة على الرمال وقال : بوسعك أن ترى أى معركة قامت بينهما . إن طير الحبارى يستطيع أن يصعق شاهينا بضربة من جناحه .

واستأنفنا سيرنا . ورأينا جماعة من الحبارى على بعد خمسين ياردة منا ولكن الصقر الذى كشف زايد قناعه ، رفض أن يطير . ونظر زايد إلى مافوق رأسه ثم أشار إلى نسور أربعة تطير فوقنا ثم قال : إن الصقر خائف منها . ومرة أخرى انطلق الصقر وراء حبارى أخرى . ولكنه مالبث أن عاد إلى زايد وضرب على صدره . فقد انقض عليه نسر وأدهشنى أن النسر تجاهل الحبارى وانقض على الصقر . وقال زايد وهو يربت على الطائر الخائف : لافائدة من البقاء هنا مع وجود النسور . فلنتابع سيرنا .

وحل الظلام ، فدخلنا المخيم . وقد أخذ التعب منا كل مأخذ . ولكننا كنا راضين عن أنفسنا فى يومنا الأول، وزاد من سرورى أننا استخدمنا الطريقة البدائية فى الصيد ، لا طريقة استخدام السيارات ، كما أصبح شائعا فى نجد .

وعدنا إلى (مويقع) بعد شهر . وكان ابن قبينة قد وصل من ضفارة بينما بقي ابن غبيشه وعمير فى البوريمي .

وبحثت عمن يرافقني إلى عمان الداخلية فلم أجد . وأخيرا أرسل زايد ، سرا ، تابعاله ، يدعى حميد ليتصل بسالم بن حبروت . وهو شيخ من شيوخ قبيلة (جنوبا) القوية كي يقنعه بأن يلتقي بنا في الصحراء على حافه بلاد الدورو عند بئر (قسيورة) وقال لي زايد إن سالم يستطيع ارشادكم عبر بلاد الدورو وسيقوم بتوصيلكم الى (العز) لأن قبيلتي (الجنوبا) والدورو من الغفريين . وسأعطيكم رسالة إلى (ياسر) في (العز) وهم من أعظم رجال (الجنوبا) .وسيساعدكم .

وقد تتمكنون من دخول عمان . والله وحده يعلم كيف ستخرجون منها .

الباب الخامس عشر

رمال أم السموم المتحركة

تركنا (مويقع) فى الثامن والعشرين من شهر ينـاير سنة ١٩٤٩ وقد أخذنا معنا جملين اضافيين لحمل الماء والطعام ، وسرنا فى اليومين الأولين غربا واستهدفنا من ذلك تجنب آل بوشمس الذين كانوا مخيمين فى الصحراء الشرقية ، ومن ناحية أخرى أردنا أن نوهم من يرانا أن وجهتنا حضرموت لا عمان .

وفى اليوم السادس من شهر فبراير ، وصلنا (قسيورة) . وعثرنا على آثار حميد وسالم ، كان (فون ريد) أول أوربى تحدث عن الرمال المتحركة فى جنوبى الصحراء العربية ، وقد زعم أنه عثرعام ١٨٤٣ على صحراء خطرة يسمونها (البحر الصافى) فى الربع الخالى شمالى حضرموت، الا ان (برترام) اعتقد أن تلك هى أم السموم التى سمع عنها من دليله . ولقد صممت على أن أحدد موقع هذه الرمال التى تأكدت من أنها تقع على بعد سبعمائة وخمسين ميلا شرقى حضرموت .

ورأينا أن نستقى من أقرب بئر فى (وادى العين) قبل السفر جنوبا إلى الجانب الشرقى من (أم السموم) . وصلنا إلى وادى العين . وملأنا جلود الماء دون أن ينتبه الدورو الينا . ولكننا أضطررنا للبقاء فى ذلك المكان بعد

أن كدنا نفقد الإبل بسبب البرد القارس .

وفى اليوم التالى ، شاهدنا جماعة من حوالى عشرين فارسا تتقدم نحونا وترجلوا على بعد مائتى ياردة من مكاننا وسأل ابن الكام سالما : من هؤلاء ؟ فأجابه سالم : لعنهم الله . إنهم سليمان بن خرس وآخرون من رجال الدورو ثم حدق البصر فيهم برهة وقال لحميد : تعال معى ، فمن الأفضل أن نذهب اليهم ونرى مايريدون .

واتجه نحوهم سالم وحميد . ونهض الدورو لتحيتهما ، ثم جلسوا جميعا فى دائرة . وتعالت الأصوات واقترحت الانضمام اليهم . فنصحنى ابن الكام بالبقاء وترك الأمر لسالم وحميد الغفريان ،

وجاءنا عدد من الدورو ، ومن بينهم (سطيعون) وابنه على . وقال (سطيعون) العجوز : إن الشيوخ مصممون على منع أى مسيحى من المرور فى بلادنا ، ولكن بما أنك نزلت عندى منذ سنتين ، وأصبحت صديقى . فسآخذك أنا وإبنى الى حيث تريد ، بصرف النظر عما يقرره الشيوخ ، فشكرته ، ثم سألته هل عرف من أنا عندما نزلت ضيفا عليه . فأجاب : كلا وقد عجبنا كثيرا لك . ولكن لم يخطر ببالنا أنك مسيحى . وشرب القهوة ثم طاب مرافقتى الى الشيوخ . وتبعناه . وتبادلت التحيــة والاخبار مع الدورو . ووجدنا سالم وابن خرس يتجادلان . وقال سالم فى غضب : ان (الجنوبا) مرضى عنهم كأدلاء عند الدورو . فبأى حق تمنعوننا؟ورد عليه ابن خرس صائحا ؟ ان تقاليد القبائل لاتطبق على النصارى . وانبرى سطيعون يقول لماذا نخلق كل هذه المشاكل يابن خرس ؟ لا خطر من جانب هذا الرجل . فهو معروف للقبائل . وأنا أعرفه إن كنت لاتعرفه . لقد

قضى عندى عشرة أيام . ولم أجد فيه ميلا إلى الأذى . بل على النقيض من ذلك . لقد عاوننى . . إنه صديق . وأردف حميد يقول : إن مبارك صديق حميم لزايد . ولقد عاش طويلا بين القبائل وهو ليس كغيره من النصارى ، إنه صديقنا .

وتحدث رجلان من الحضور إلى ابن خرس على انفراد ، ثم رجعوا . وقال ابن خرس فى فظاظه . يمكنكم السير مع هذا النصرانى جنوبا على حافة أم السموم إلى أن تخرجوا من بلادنا . على شريطة الا تستقوا من آبارنا .

وفى الصباح ملأنا جلود الماء . فقد خشى سطيعون ألا نستطيع السقيا من العميرى . وطلبت منه أن يرافقنا على طول حافة أم السسوم كى أرى تلك الرمال المتحركة . ووافق قائلا : ليس هناك فى الحقيقة شيء يمكن أن تراه .

وسرنا حتى وصلنا مجرى ماء يطلقون عليه إسم (زويقى) . وكان هناك سهل ترابى اللون لاحجر فيه ولا نبات ، واستدار سطيعون نحوى قائلا : هاقد وصلنا هذه هى أم السموم .

هأنذا أول أوربى يشاهد هذه الظاهرة. فالأرض هنا تتكون من مسحوق جبسى أبيض مغطى بطبقة من الملح ـ وخطوات بضع خطوات إلى الأمام . ولكن سطيعون نصحنى بألا اقترب أكثر مما فعلت . وأكد لى أن فـــرقة لصوص من العوامر قد هلكوا فى هذه الرمال . وأنه رأى بنفسه قطيعا من الماعز يختفى تحت سطح هذه الأرض .

واستقينا فى (العميرى) ولم يمنعنا أحد . وكنت مشوقا إلى زيارة رمال الغربانيات غربى أم السموم . وهذه الرمال مشهورة بكثرة وعولها .

وعاد سطيعون إلى مخيمه بعد أن أناب (عفر) عنه فى ارشادنا حتى نصل إلى وهيبة . وعرض علينا (عفر) فكرة السفر عبر رأس السموم الجنوبى . ولكننا عارضناه . فطمأننا بأنه يعرف ممراً مأمونا يوفر علينا السفر الطويل .

وسرنا على أرض لزجة محاولين أن نسند الإبل حتى لاتنزلق وكنا نخوض وحـــلا أسود لزجا وبعد ذلك وصلنا الى أرض كلسية ورأينا الربع الخالى ، تلال ممتدة ، ذات الوان دافئة تتخللها بعض المراعى .

وفكرنا فى البحث عن الدخول واقترحت مازحا أن يقرأ أحدهم الرمال وتطوع ابن طاهى لهذا العمل وأعلن أن الوعول فى الناحية الجنوبية على مقربة من السحمة .

وذهبنا جنوبا الى (السحمة) ولم نجد الوعول وسرنا مدة تسعة أيام أخر فوصلنا إلى (فاراى) على حافة بلاد وهيبه وفى (فاراى) وجدنا جموعا من قبائل (وهيبة) و(الجنوبا) والحراصيص) . وجميعهم منهمكون فى إرواء إبلهم وقطعانهم ، وحدث أن تعرف صبى من (وهيبة) على جمل ابن قبينة وصرخ بأنه سرق منه منذ عدة أشهر ، وطمأننى ابن الكمام الا حق للصبى فى الجمل ،فقد اشتراه ابن قبينة ولكن الصبى تشبث باسترجاع الجمل، وقبل ابن قبينة أن يرده اليه مقابل إعطائه جملا أحسن منه يكثير أعجبه .

وأتى الينا رجل عجوز فى (فاراى) وكان أحد شيخين من (وهيبه) قضيا الليل معنا فى (حوشى) منذ عامين ، ودعانا الشيخ إلى مخيمه ورفضنا الدعوة فقد كنا نريد الذهاب الى الساحل وعرض علينا أن يرافقنا ولكنه كان هرما فاقترحنا أن ينوب عنه ابن عمه (أحمد) وكان شابا لطيفا ، حسن المعشر ، ذا سحر شخصى ، فأحبه الجميع ، واستقينا مرة أخرى فى « هانج » على مقربة من الساحل الجنوبى .

الباب السادس عشر

صحراء وهيبـــة

هانحن الآن فى جنوبى شبه الجزيرة العربية على ساحل المحيط الهندى . وحل موعد العودة ، وأردت أن تـكون تلك العودة عبر عمان ولا بد لمثل هذه الرحلة من جهد دبلوماسى أشق من الجهد الجسمانى ، كى ننجح .

وأفهمت (أحمد) أننى أود السفر شمالا إلى وادى (بطحا) ثم نعود إلى (مويقع) وهذا الطريق مستمر عبر صحراء (وهيبه) التى احترق شوقا إلى رؤيتها ووجدت منه تشجيعا لفـكرتى .

وقال لى (أحمد) إنك حر فى الذهاب حيث تشاء فى أرض (وهيبة) فنحن أصدقاؤك ، ولن يحاول أحد منعك . ولـكن القبائل التى تقطن سفوح الجبال تختلف عنا ، وستثير المشاكل حتما لو عرفت من أنت ، تماما كما فعل الدورو . إن اجتياز الصحراء ميسور ، أما الجبال فعلى العكس . فالبلد ضيق جداً . ولن يكون سهلا أن نتحاشى الأنظار . سأبعد بك ما أمكن ،وسيكون معنا أحد زملائك بينما يظل الباقون فى وادى (حلفين) حتى نعود إليهم .

ودخلنا فى اليوم الثانى وادى (عندام) الذى يبعد بضع أميال عن وادى (حلفين) ، وبعد أن اجتزناه شمالا وصلنا إلى (النافى) وهناك عثر أحمد على رجل من قبيلة (الحيا) يدعى (سلطان) كى يقودنا عبر الصحراء إلى وادى (بطحا) وذهبت معه مستصحبا ابن قبينة واتفقت مع الباقين على

اللقيا فى نقطة تبعد قليلا إ لى الشمال فى وادى (الحلفين) .

وفى اليوم التالى وصلنا بئر (طاوى هريان) التى يبلغ ثمانين قدما عمقا ومضى بنا المسير حتى وصلنا وادى (بطحا) ويبلغ اتساعه حوالى ستة أميال ويحده من الجانب الآخر حزام ضيق من الرمل يلى ذلك تلال منخفضة قاتمة اللون وتمتد شمالا سلسلة جبال (حجر) العالية ، وقد استطعت من موقفى أن أرى قمم جبال (جعلان)

واقترحت على أحمد وسلطان الا نعود رأسا بل نسافر عبر القرى التى تقع أسفل الجبال ولكن أحمد رفض قائلا إنه سيرينى مايمكن رؤيته من هذه البلاد ويجب ألا يعرف أحد أننى نصرانى .

وحذرنى أحمد الا أتكلم عند لقائنا بأعراب وأشار على ابن قبينة أن أخلع ساعتى من يدى .

وشاهدت ونحن نصعد الوادى أن هناك قرية نصفها مدفون فى الرمال . وقد أشار إليها سلطان قائلا . . إنها كانت مأهولة منذ بضع سنوات وإنها ستختفى بمضى الزمن تحت الرمال .

والتقينا بجماعة من الأعراب فى طريقنا ، وكانو مسلحين وشاهدت عيونهم وهى تتفحصنا جميعا ولكنها تتركز دائما علىّ وسأل أحدهم مشيرا إلى : أهو (تنوخى) ؟ وكانت اجابة اصحابى ، أن أجل ، وإننى قادم من صور على ساحل مسقط ، وأن مهنتى بيع الرقيق . وأننى ذاهب إلى نزوى ، كانت لحظة حرجة لكنها مرت بسلام .

وبدت لنا من بعد بلدة (الحرث) ولكن سلطان نصح بتجنبها حتى لا نلتقى بشيخها صالح بن عيسى رأس قبائل (الحناوى) ويكشف عن حقيقتى فيسوء المآل .

ووصلنا إلى بلدة (الحبوس) وكان طعامنا قد أوشك على النفاد ، وأكملنا طريقنا هابطين الوادى ، مارين بعدد آخر من القرى الواقعة حافة على الوادى .

وكان اليوم صافيا فاستطعت أن أرى قمة الجبل الأخضر التى يبلغ ارتفاعه نحوا من عشرة الاف قدم .

وتقدمنا نحو بئر فى وادى (عندام) واسترعى نظرى رجل يرتدى كوفية من الصوف الموشى ، قد القيت يتراخ حول رأسه ، وهمس أحمد لى قائلا : إنه على بن سعيد بن راشد شيخ (اليها هيف) وتبادلنا التحية فقال لى : أخيرا وصلت سالما . أهلا بك وسهلا ، إن رفاقك قريبون من مخيمى ، وكلهم بخير وينتظرون أوبتك ، سنخيم الليلة مع البلوخيين على أن تذهب غدا إلى هناك .

وقضينا الليل فى مخيم البلوخيين وعلمت من الشيخ على أن أصل هؤلاء القوم من فارس ولكنهم عاشوا بين قبائل (وهيبة) حتى أصبحوا منهم ، وأنهم يتكلمون العربية .

وفى وقت متأخر من مساء اليوم التالى ، وصلنا إلى بئر فى وادى حلفين بعد أن قطعنا حوالى المائتين والخمسين ميلا منذ أن فارقنا بقية الرفاق .

وقضينا اليوم الذى بعده فى مخيم على ، وقد حذرنا بأن القبائل الغفرية التى

تسكن فى الشمال، قد علمت بمقدمنا و بوجودى بين قبائل (وهيبه) وأنهم مصممون على منعى من المرور فى أراضيهم وأشار على أن أسافر على طول الساحل إلى مسقط ، على أن أتابع سيرى عبر (الباطنة) ولكن معنى هذا أن أتخلى عن هدفى الأساسى من رحلتى وهو استكشاف داخل عمان .

وأخبرت عليا أن زايدا قد أعطانى رسالة لياسر يطلب إليه فيها مساعدتى وسألته هل يعتقد أن باستطاعة ياسر أن يعيدنى إلى (مويقع) فأجاب أجل ، أعتقد أن ذلك باستطاعة ياسر ولكنى أشك فيما إذا كان سيفعل، فهو لا يريد الاساءة إلى الامام .

وأرسلت حميدا إلى ياسر برسالة زايد عندما صرنا قريبا من (عـدم) وهى قرية صغيرة تقع ما بين (مضمار) و (سلخ) .

وفى اليوم التالى خيمنا شمالى (مضمار) فى قرية (طاوى ياسر) حيث اتفقت مع حميد أن يجتمع بى .

وانتظرنا عودة حميد ، وأخذت أفكر ماذا سيكون موقفى لو أن ياسر رفض مساعدتنا ، وكدت أندم على ارسال حميد إليه ، معتقداً أننا لو سافرنا بسرعة لأمكننا عبور الصحراء دون أن يرانا أحد .

وجلس ابن قبينة على مقربة منى ، يرتق فتوق قميصه الذى أصبح فى حالة يرثى لها ، وسألته فى انزعاج لماذا لا يلبس قميصه الجديد ، فتردد قبل أن يعترف بأنه منحه لسلطان الذى كان فى حاجة إلى قميص، وأنه لم يشأ أن يطلب منى نقوداً لأنى رفضت طلبه من قبل .

والحقيقة أن هذا كان صحيحاً . فقد اقترض مني عدة مرات ولكنه كان يعطي المال لمن يطلبه منه . فحاولت الحيلولة دون هذا التبذير الدائم للمال الذي سيحتاجه فيما بعد .

وعاد حميد في وقت متأخر من بعد الظهر وقد جاء معه ياسر وثلاثة من الأعراب، وأخبرني حميد أن ياسراً قد أحرجه وجودي كثيرا . فقد أصدر الإمام أمرا بالقاء القبض علي إذا مررت من هذا الطريق ولكن ياسراً اضطر إلى مقابلتي لوجود رسالة معي من زايد وافهمني أن ليس باستطاعته أن يعود بي إلى « مويقع » دون إذن من الأمام وعلى هذا فسيسافر في الصباح إلى (نزوى) ليرى رأي الأمام فينا ووعد بأن يأخذنا ابنه إلى مكان في منتصف الطريق بين (نزوى) ، (عز) .

وأخذت (ياسر) جانبا وأخبرته أن صديقي الحميم زايد أكد لي أنه أقوى شيخ في تلك الارجاء ، وأن باستطاعته أن يسهل لي عبور عمان في أمان ، وأبديت استعدادي لتنفيذ كل أوامره ، وكان رده على ذلك أن طلب إلى الذهاب مع ابنه واعدا بملاقاتي في اليوم التالي بعد الحصول على إذن من الامام ،

وخيمنا في اليوم الثاني على بعد عشرة أميال من « نزوى » ، وإن ظلت المدينة بعيدة عن مواقع بصرنا خلف حافة صخرية ، وكان الهواء نقيا واستطعنا رؤية الجبل الأخضر كله

ورجع ياسر عند الغروب . ومعه عدد من الأعراب وقال إنه أثناء سيره إلى (نزوى) التقى بفرقه من فرسان الامام أرسلها للقضاء علينا . فأعادها الى (نزوى) ثم استطاع بعد طويل جدال أن يقنع الامام بمنحي إذنا بالعودة الى (مويقع) وقد أرسل الامام احد رجاله مع ياسر مندوبا عنه .

وبينما كنا نجتاز طريقنا الى (مويقع)مررنا بثلاثة رحال ممتطين ظهور إبلهم . كان أحدهم رجلا قصيرا يختفى تحت عمامة كبيرة بيضاء. إنه الرقيشى المفزع حاكم(عبرى) وحياه ابن الكلام . فرد عليه الرقيشى بما يظهر نقمته عليه لوجودى بهذه البلاد .

واتجهنامن (عبرى) شمالا فوصلنا (مويقع) فى السادس من شهر ابريل بعد أن قطعنا الف ومائة ميل منذ تركنا قلعة زايد فى الثامن والعشرين من شهر يناير .

الباب السابع عشر

خاتمة

وعدت مرة أخرى من انجلترا فى شهر نوفمبر سنة ١٩٤٩ ، وقد انتويت أن استكمل خريطتى فى داخل عمان والجبل الأخضر .. وفى « مويقع » وجدت ابن قبينة وأخاه وابن غبيشة وابن طاهى والجبرى ، أما ابن الكبام فقد كان فى « ظفار » وكان الجميع على استعداد للسفر معى . إلا أن ابن قبينة حذرنى أن القبائل لن تسمح بدخولى مرة أخرى ، وأرسل زايد الى « هويشل » شيخ الدورو كى يرافقنا فوصل بعد ستة أسابيع ، ووعدنى بأن يدلنى على سليمان بن حميد فهو دون غيره قادر على أخذى إلى الجبل الأخضر .

وغادرنا « مويقع » وجدبنا المسير عشرة أيام والتقينا فى طريقنا بابن خراس الشرسى الذى اعترض طريقنا فى العام الماضى .

ودار نقاش جاد بين رفاقى وابن خراس الذى أصر على منعنا من المرور واهتاج « هويشل » وأرغى وأزبد . وصمم على المسير رغم أنف ابن خراس وكادت تحدث معركة لولا أن ابن غبيشة أفهمنى أن الأعراب جادون فى تصرفاتهم وأنهم سيطلقون علينا النار اذا حاولنا السير ، وسأكون أنا أول الضحايا وناديت (هويشل) ، واقترحت عليه أن يذهب الى « على بن هلال »

رئيس هذه القبائل الغفرية للحصول منه على تصريح لى بالتجول فى البلاد ووافق الجميع على هذا الإقتراح، وسمعت ابن خراس يتمتم قائلا : لن يمر مبارك عبر بلادنا حتى ولو أعطاه مائة على بن هلال أذنا بالمرور ، فمن هو على بن هلال هذا حتى يأمرنا ؟ .

وذهب (هويشل) ، واعدا . أن يعود بعد ثلاثة أيام ، وانسحب ابن خراس وأتباعه إلى مخيم قريب ،

وجاءنا ابن خراس بعد ثلاثة أيام يطلب الينا مغادرة المكان ، فلم يعد « هويشل » كما وعد وحاولت إطالة الوقت بإقامـــة سباق بين الإبل ومنح جائزة لأفضل جمل ،

وفى المساء عاد ابن خراس ، ليعلن ضرورة ابعادى فى صباح الغد ورفض أن يشرب القهوة . ورأى الجميع ضرورة الرضوخ لمشيئته خوفا على حياتنا ،

وفى اليوم التالى وبعد أن اجتزنا نحو ثمانين ميلا فى اتجاه الغرب وصل « هويشل » يحمل أذنا بالموافقة على سفرى وعلل تأخيره بهبوب الرياح ولم أرد أن أعاديه فلم أظهر له سخطى عليه لتأخره وقد وعدنا أن يسير بنا إلى وادى العميرى .

وسرنا عبر سهول الحصباء ، والتقينا فى وادى الأسود ببعض أفراد الدورو وكان أحدهم يعانى من الحمى فأعطيته قليلا من الكينا والأسبرين ، خشية أن تكون ملاريا . وفى اليوم التالى أصيب و بن قبينة بمرض مشابه ، ثم انتقل المرض الى ابن غبيشة وابن طاهى وأحد رجال « هويشل » . وبدأ الماء ينفد وشعرت فى المساء بألم فظيع فى رأسى ، وارتفعت درجة حرارتى ، ووصلنا

الى (العميرى) وتقدمنا من البئر لنستقى ، فأطلق علينا بعض « الدورو » الرصاص ، وذهب اليهم « هويشل » وأقنعهم بتركنا نمر ،

ومضت ثلاثة أيام وصلنا فيها الى مكان يبعد حوالى العشرة أميال الى الجنوب الغربى من (غز) وذهب « هويشل » و « الجبرى » الى سليمان بن حميد فى (تنوف) ليستأذنوه فى زيارتى له ، وبعد ثلاثة أيام أخر عادا ليخبرانى أن سليمان قد دعانى الى « بركة الموز » لمقابلته وعلمت منهما أنهما فى طريق عودتهما ، حاولا التوقف فى مدينة « مهله » فاغلق السكان الأبواب دونهم ، وأن سليمان نصحهم بعبور الوادى عن طريق قرية « المعمور » فى منطقته الخاصة .

وفى صباح اليوم التالى نبهنا رجالنا الى أن نحوا من مائة رجل مسلح مخيمين عند مجرى النهر القريب . . وجاءنا أربعة منهم ليبلغونا أمراً بمغادرة البلاد فوراً وحاول « هويشل » أن يقنعهم بالإنتظار حتى ياتينا رد من سليمان فلم يقبلوا ، وسمعتهم يتجادلون حول من منهم سيقتلنى لينال الجائزة.

ووصلنا رسول من سليمان بن حميد يقول : إنه فى الطريق الينا ووصل سليمان بعد الظهر وخيم فى (المعمور) وتقابلت معه وكان يبدو عليه الغضب من الأمام

وتأكدت أن الإمام ، كان على حق فى عدم ثقته فى سليمان . إذ أن سليمان يتمنى أن تعترف به الحكومة البريطانية كحاكم للجبل الأخضر .

وخاب أملى فى زيارة الجبل الأخضر ولم يستطع سليمان أن يحقق لنا ذلك وعدنا أدراجنا إلى الشمال فوصلنا (مويقع) بعد عشرة أيام وقضيت هناك أياما مع زايد قبل أن أغادرها إلي « دبى » ولما كنت أعلم أنني ذاهب الى غير رجعة

فقد آثرت أن آخذ معى ابن قبينة وابن غبيشة ليبقيا معى إلى حين مغادرتى لشبه الجزيرة العربية .

تعشينا مع شيخ « دبى » على الجانب الآخر من الخليج.

واعتاد ابن قبينة وابن غبيشة الحياة معنا فى بيت هندرسون ومساعده الذى نزلنا فيه .

وفى صباح أحد الايام عاد الأثنان قبل الفطور فى حالة هيـــاج شديد وأخبرانى أن شيخ الشارقة قد قبض على قريب لهما وطلبا أن يذهبا لمساعدته وسألتهما ، كيف سيذهبان الى الشارقة وهى تبعد أثنى عشر ميلا فأجابا : بالسيارة وطلبا بعض المال لاستئجار سيارة،واقترحت عليهما الانتظار والذهاب الى هناك فى سيارة البضائع التى سيرسلها هندرسون الى هنـــاك ولكنهما كانا قلقين ، وهما يخشيان أن يتأخر هندرسون فى ارسال السيارة وسألتهما عن اسم الرجل المقبوض عليه فاجابا : بانه يكفى أن يكون قريبا وسالت ثانية هل هو من آل رشيد فاجابا : كلا بل إنه شريفى وآل شريف قبيلة صغيرة تمت بنسب بعيد لآل رشيد

وقال ابن غبيشة إن قريبه هذا وقع فى مأزق فلا بد من مساعدته . هل تريدمنا أن نتركه وليس له سوانا معين ؟ .

وانطلقا فى سيارة الشحن، ثم عادا فى المســاء وظهر أن الرجل أخلى سبيله قبل أن يذهبا :

وسألت ابن قبينة هل يحب أن يحيا حياة المدن فاجاب : كلا ليس هذه حياة

الرجل .

لقد سئلت كثيرا لماذا يحب البدو حياة الصحراء مادامت قاسية، والحقيقة أن البدو يعيشون فى الصحراء بمحض ارادتهم ولا يرضون عنها بديلا

وعندما انتويت مغادرة شبه الجزيرة العربية نصحت ابن قبينة وابن غبيشة بالرجوع الى موطنهما فى الجنوب ، خشية أن يقتلا أخذا بالثأر القديم .
وبعد أن عدت الى انجلترا، سمعت أن أبن قبينة جمع أبله وعاد الى (حبروت). أما ابن غبيشة فإنه بقى فى ساحل الهدنة.

هناك فى الصحراء وجدت كل ما اشتهت نفسى وتأكدت أننى لن أحصل عليه مرة اخرى ولشد ما آلمنى ذلك التطور الشامل الذى عم المنطقة ، لقد كتب الفناء على اولئك البدو الذين عشت معهم وسافرت معهم وأحسست القناعة فى صحبتهم وقد يظن بعض الناس ان حياتهم ستصير الى احسن عند مايستعيضون عن فقر الصحراء وقسوتها برفاهية العالم المادى ولكنى لا أعتقد ذلك .

سأظل أذكر دائما، كم اخجلنى هؤلاء البدو والأميون بخصال الكرم والشجاعة، والصبر التى كانوا يتحلون بها والتى تنقصنا نحن المدنيين.

وفى المساء الأخير أخذ ابن قبينة وابن غبيشة يخرجان الامتعة القليلة التى ابتاعاها .

وفى اليوم التالى وبعد تناول طعام الفطور ،وصلت سيارة ،فتعانقنا للمرة الاخيرة ،وقلت لهما « اذهبا فى أمان الله » وردا على قائلين : فليرعك

الله يامبارك ثم ركبا الى جانب لاجىء فلسطيني يلبس ثيابا وقد لطخها بالنفط وان هى الا دقائق حتى غابا عن ناظرى .

وذهبت الى المطار فى الشارقة وركبت الطائرة التى حلقت بى فوق المدينة ثم انحرفت فوق البحر ، وأحسست بنفسى إحساس من يذهب الى المنفى .

كتب قومية

مع الباعة فى كل مكان

النضال الشعبى فى سوريا
و
قصة الانقلابات

محمد فرج



١٥٧ شارع عبيد – روض الفرج
تليفون ٤٥٣٤٦ – ٤٥٤٠٥ – ٣١٦٢٥

العدد ١٤٥ — الثمن ١٨ قرشا